

روايات مصرية للجيب



ما وراء الطبيعة

أسطورة الظلال

71

الأستاذ الدكتور

Looloo

www.dvd4arab.com



المقدمة

طبعاً أنا د . رفعت إسماعيل .. هذه سلسلة (ما وراء الطبيعة) وأنتم القراء ..

هكذا يمكن أن نقول أننا قمنا بعملية ضبط المصطلحات ، وعرفنا من هو من ، وعرفنا دوره بالضبط ..

كنت في المرة الأخيرة قد حدثتكم عن ناد يضم لعضويته الغيلان ، أو يضم - بعبارة أدق - من يتوسم فيهم القدرة على أن يكونوا من الغيلان .. لاحظ أننا لا نضع حلقات الرعب في سياق السلسلة الأصلية ؛ لأنه لا ترتيب زمنياً لها .

هكذا يمكنني أن أحدثكم عن ... عن ... لا .. لا داعي للكلام عن (الثقوبات) ؛ فهي قصة مرعبة وغير مناسبة عامة . جميل أن تضع رقابة خاصة على ذكرياتك فلا يخرج منها إلا ما تراه مناسباً ..

ماذا عن (كيريبالا) ؟ .. لا .. موضوع غير مناسب البتة ، وأعتقد أنني لن أحكيه أبداً ... لا أحد يحب العيون المفقوعة على كل حال .. هذه عادة بشرية منذ أيام (أوديب) ..

أسطورة الظلال ! كيف لم أحكيها بعد ؟!

إنها مسلية وبها قدر لا بأس به من الرعب . أعتقد أنها تناسب الجميع ، خاصة الأطفال .. كما أنها تحتوى موعظة أخلاقية بسيطة ، هي ألا تثق فى الأشخاص الذين لا ظلال لهم . هي نصيحة قديمة قدم الرعب نفسه ، لكننا ننساها دوماً ..

الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرف ظلهم بشكل منفصل .. يبدو أن السينما التعبيرية الألمانية قتلت هذا الموضوع بحثاً فى أوائل القرن العشرين والأفلام الصامتة الكابوسية الباردة . إن من شاهدوا فيلم (نوسفيراتو) ظلوا ينظرون إلى الظلال أكثر مما نظروا إلى الأجسام الحية .

هناك قصة لـ (هانز كريستيان أندرسن) عن الرجل الذى قرر ظله أن يتمرد ويعيش حياته الخاصة ، وصار رجل أعمال ناجحاً .. وهناك قصة شهيرة لفتحي غاتم الروائى العظيم عن رجل فقد ظله ، لكن الظل كان مجازاً طبعاً .. لكننا اليوم نتحدث عن قصة مختلفة بعض الشيء ..

(إدجار آلان بو) تحدث عن الظلال المخيفة التى يبعثها الغراب ، وعن نظراته الشريرة ..

لا يمكنك أن تعد الأعمال الأدبية التى تتحدث عن الظل .. تفسير ذلك سهل على كل حال ..

تصور أنك وأنت تطالع هذه السطور رأيت فوق صفحة الكتاب ظل شخص .. ظل يد مغلبيّة ترتجف فى جشع وتدنو منك من الخلف ..

للحظة يفلت قلبك ضربتين .. ينتصب شعر رأسك .. تلقى بالكتاب جانباً وتنبّ ناظراً إلى الخلف .. لا شيء ..

مرحباً بك يا صديقى فى مدرسة الرعب البريطانية ..
مرحباً بك فى عالم الظلال وقوم الظلال وأساطير الظلال ..
مرحباً بك فى صالون الدكتور (رفعت إسماعيل) ..

تقوم (سالى) بتنظيف الشقة بالمكنسة الكهربائية .. الضجيج يصم أذنيها ، لكنها تحاول أن تتابع ما يدور على شاشة التلفزيون .

هناك أشياء مهمة كثيرة على الشاشة : سيدة فى الخمسين تتكلم مع رجل فى الثلاثين ، وهما جالسان فى الاستوديو . كل هذا مشوق فعلاً كما ترى .. إنها الإثارة فى صورة برنامج .. الأهم أن السيدة متحمسة ولا تعطى الرجل فرصة للكلام ، وكان هذا الموقف يروق لسالى كثيراً ؛ لأنها تشرع فى تخيل ما يقولان ، وتقوم بتركيبه على خيالها الخاص ..

مثلاً هى تشاجرت مع زوجها بسبب فواتير ثيابها الجديدة ؛ لذا راحت تتخيل أن السيدة تقول للرجل :

« أنت رجل بخيل .. سالى ترهق نفسها وتغنى بالبيت .. ليس كثيراً على البائسة أن تختار ثياباً تروق لها .. »

والرجل يقول فى عصبية :

« هناك فارق بين أن تأخذ آخر سنت عدى ، وأن تأخذ آخر سنت ليس عدى .. أسمح لها بتبذير الموجود فعلاً ، لكن لا أسمح لها بتبذير ما ليس معى ، وسوف يحاصرني بالديون .. »

تمهيد

ظلت تتابع هذه المحادثة الخيالية وهي تنظف السجادة في عصبية .. تصورت أن السجادة زوجها ، وراحت تنظفها بعنف أكثر ، حتى كادت تهشم اليد ..

سألت أم أمريكية من الطراز الذى ينتج بالآلاف هناك .. يطلقون عليه اسم (أم كرة القدم Soccer mom) ؛ وهي الأم متوسطة التعليم والذكاء ، التى تحترم كل القيم الأمريكية ، وتنشئ بأن الأمريكان أروع شعب فى العالم ، وهي حريصة على صحة أولادها للنساء ؛ لهذا تأخذهم إلى كل أنواع الدورات التدريبية ؛ بحيث لا تسمح لهم بلحظة حرية واحدة .. تأخذهم إلى دورات سباحة وبيزبول وكونج فو وكرة قدم .. تفعل هذا وهي تقود سيارة عتيقة صغيرة الحجم .. تقودها بطريقة مرعبة ؛ بحيث تصير خطراً داهماً على الطرقات . كل أمريكى يعرف أن أمهات كرة القدم لا يوقفن سياراتهن إلا ويحطمن مقدمة السيارة التى خلفهن ومؤخرة السيارة التى أمامهن ..

لكن هذه الأم تتابع أولادها جيداً وهذه مزية مهمة فى هذا المجتمع .. كما أنهم يعرفون كيف يحتفظون بأزواجهن فى مجتمع تسود فيه ظاهرة الوالد الواحد .. أب فقط أو أم فقط ..

انتهت من تنظيف قاعة الجلوس ، فأغلقت جهاز التلفزيون .

الآن حان وقت تنظيف غرفة (ريكى) .. إنه فى المدرسة .. ريكى الآن فى الرابعة عشرة من عمره ، وهو مراهق .. مراهق أمريكى ، بما يعنيه هذا من هول ورعب ..

لقد صار وقحاً صموتاً .. كل كلامه تحد ، وكل نظراته عدوانية .. رأيه الخاص أن أباه وأمه هما أغبى شخصين فى العالم ، والوحيدان اللذان لا يفهمانه ..

طبعاً لم يعد يفكر إلا فى الفتيات . (ريتا) صديقته فى المدرسة ، وهي فاتنة على الطريقة الأمريكية .. أى إنها (ساخنة) ، باعتبار الأمريكان لا يقولون : (جميلة) أبداً ..

الولد لا يفكر إلا فى ريتا .. طقوس المراهقة الأمريكية من المواعدة والدعوة للرقص فى حفل المدرسة السنوى ، والذهاب لفيلم ..

هذه أشياء لم تبتلعها (سالى) ولم ترتج لها . تمنيت لو كان بوسعها أن تفعل مثل آباء الزمن القديم ، فتحطم رأس الفتى وتحبسه فى حجرته . لكن الزمن أقوى منها .. المجتمع الأمريكى يجرها إلى حيث لا تريد ، وإلى حيث تصير مثل أى أم أمريكية أخرى ..

لا تعرف كم سيمر من وقت قبل أن يقدم له صديقه أول سيجارة محشوة بالماريجوانا أو أول قرص مخدرات .. سوف يتعاطى ابنها الأحق هذه الأشياء ؛ لأنه يريد أن يتحداها ، ويريد أن يشعر بأنه كبير ناضج ..

هو كذلك معنوه ؛ لهذا سيقع سريعا في هوة الإدمان .. ليس معنوها فحسب ، بل هو مجنون .. سيأخذ جرعة زائدة ويموت ..

كل العلامات في حجرته تدل على المصير الأسود الذي ينتظره .. على الجدار هناك أكثر من صورة لـ (راكيل ويلش) ملكة السبعينات ، في ثياب صنعت خصيصا لتثير جنون الأم . هناك سماعات عملاقة بحجم طفل ، وبالتطبع تتصل بجهاز كاسيت ياباني الصنع ، تراصت جواره شرائط (روك أند رول) . على الجدار صورة عملاقة لـ (ماتسون) ملك الهيبيز الذي ينتظر الحكم عليه بالإعدام ، وعدة ملصقات لفرقة مجنونة اسمها (رولنج ستونز) لا تعرف عنها سوى أن أفرادها يعتقدون في كل الجمارك بتهمة تحريض مخدرات.

تذكرت طفلها صغيرا متوردا أشقر لا يكف عن الضحك ، وهو يلعب مع أرنب صغير أبيض .. فدمعت عينها ..

كان ملكها بالكامل ، وكان يحبها حقاً ..

لماذا يكبر هؤلاء الأوغاد ؟! .. لماذا ؟!

راحت تنظف الغرفة غارقة في خواطرها .. بالتطبع لم تنس تفتيش الأراج بحثا عن السيجارة المحشوة / المحقن / الحافاة المملوфан .. لا تدرى كيف يبدو المخدر ، لكنها ستعرفه عندما تراه ..

لا يوجد شيء .. المكان نظيف .. لكنه لن يظل كذلك للأبد ..

ثم رأت على منضدته صورة كبيرة ذات إطار .. هناك صورة لتلك الخنفسة (ريتا) .. طبعاً وهي تنظر لها في تحد محاولة إغاضتها .. نعم يا مسز (جراي) .. أنت ربيته وحافظت على صحته كي آخذه أنا منك وأعلمه كيف يكرهك .. شكراً على لا شيء .. نيا نيا نيا ه !!

ثم تخرج لها لسانها ..!

هناك صورة أخرى ذات إطار ، ولها حامل يجعلها تنتصب عمودية . إنها صورة لريكي مع رفاق مدرسته يقفون في حقل للعب البيزبول .. ريكي يقف في الوسط فخوراً والمضرب على كتفه والكاسيت على رأسه مقلوباً ، وقد بدا عليه الفخر ..

نم تر هذه الصورة من قبل .. على الأرجح التقطت أول من أمس لأنه كان يلعب هذا القميص يومها . هذا ملعب المدرسة .. فلا بد أنهم طبعوا الصورة وثبتوا لها إطاراً في يوم واحد ..

صورة جميلة .. لكن من التقطها أحمق ؛ لأن الشمس خلف الصبية لا أمامهم ، وهي على اليسار قليلاً ؛ مما جعل وجوههم مظلمة ، قد ارتمت ظلالهم إلى اليمين . أى مغفل يعرف أنه لابد أن تكون الشمس في وجهك ما لم يكن الظل مطلوباً لغرض درامى ما ..

نظرت إلى الظلال على العشب ، وشعرت بأن شيئاً ما ليس على ما يرام .. ثمة شيء ناقص ، لكنها لا تعرف ما هو ..

فتحت درج ريكي ، وأخرجت العدسة العملاقة ، وألصقتها بعينها ، وراحت تتفحص العشب عند أقدام الصبية ..

بالفعل .. هناك ظل لكل صبي في الصورة .. ما عدا ابنها !

ظلت تنتظر عودة ريكي من المدرسة ، وهي تعد الطعام في المطبخ ؛ لأنه يعود عصبياً متلهفاً على العشاء ..

زوجها يعود في السابعة مساءً ، فتتناول عشاءها معه ..

خطرت ببالها الصورة ، لكنها لم تعلق أهمية على ما وجدته . منذ متى كانت خبيرة تصوير ؟! .. لم يخطر ببالها قط التأكد من ظلال الناس في الصور ، فلربما كانت تختفى في صور كثيرة .. إن ألعاب الضوء لا تنتهى .. لقد رأت السراب وكيف يبدو في

صحراء أريزونا .. وكانت مستعدة لأن تقسم إن هذا جدول ماء يترقرق .. لولا أن زوجها أكد لها أنه سراب ..

وفى بعض الأمسيات الصيفية يبدو القمر المكتمل قريباً ، لدرجة أنها لو قذفت حجراً لأصابته وأسقطته ..

نعم .. الضوء مخادع كبير مثل ريكي ..

عندما دق جرس الهاتف رفعت السماعة وأصغت .. بدأ وجهها يتلون ...

في البداية كانت ضحكة ، ثم تحولت إلى ثغر مفتوح ، ثم تقلص مربع على جتبي الفم ..

سيدتى .. المستشفى .. نريدك حالاً .. ريكي جراى هو ابنك .. أليس كذلك ؟

تسقط السماعة من يدها .. ترفعها من جديد لتطلب زوجها في عمله . لم تسلم دمة من عينيها ، ولم يتغير صوتها ؛ فقد كانت لا تصدق ..

- « نورمان .. المستشفى .. يقولون : إن ريكي سقط في المدرسة بلا سبب ! .. يقولون : إن حالته خطيرة .. يجب أن أذهب فوراً .. هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟ .. هل تصدقه ؟ .. ها ها ها ها ها ! .. »

وراحت تضحك بلا توقف .. وتضحك ..

صوت زوجها المعنى المذعور يتكلم .. لكنها لا تسمع ..

هي تضحك .. تضحك ..

الجزء الأول

بيت الظلال الحائرة

يحكيه رامي عطية

-1-

لم تكن حياتنا سعيدة على الإطلاق ..

عندما أبتعد عن الرقعة أدرك هذه الحقيقة ، والتي كنا
لا نلاحظها عندما كنا نمارس تلك الحياة فعلاً . أنت منهمك في
الذهاب للمدرسة .. في الاتصال بأصدقائك .. في ترتيب طريقة
للاستمتاع بوقتك .. هذه الأمور تدور لكك لا تهتم بها كثيراً ..

أبى مهندس فى العقد الخامس من العمر ، من النوع العصبى
الذى ينفجر بسهولة .. قيل لى : إن هذا النوع يتمتع بصحة طيبة ،
لأن انفجاراته تخرج على الفور .. لكن أبى كان مريضاً وكان
يتعاطى أدوية كثيرة ..

أمى كانت من طراز آخر تماماً .. إنها شديدة البرود والهدوء
الداخلي . لم أرها يوماً منفعة أو ترتجف غضباً . كانت معلمة
أصلاً .. لكنها تقاعدت لأن أبى طلب منها ذلك ..

- « لا أحتمل أن أتصورك فى الحافلة يحتك بك هذا وذاك .. »

- « يمكنك أن توصلنى بالسيارة .. »

كانت عندنا سيارة وقتها ، لكن كان أبى يقول :

- « لا أحتمل أن أراك فى العمل يكلمك هذا وذاك .. »

لكنها لم تشعر قط بأنه يحبها .. لم تكن هذه غيرة ، ولكنها
حاسة امتلاك مبالغ فيها . مثلما يحرص المرء على إخفاء بقايا
طعامه فى الثلاجة .. هو لا يغار على الطعام ، لكنه يشعر بغريزة
امتلاك قوية .

لم يكن أبى يحبها .. أنا أعرف هذا يقيناً ..

على الأرجح لم تكن هى كذلك تحبه . غير أننى - أشهد - رأيت
منهما حرصاً بالغاً على تربيته أنا و(منى) أختى ، وعلى ألا نشعر
بأى شيء من الزلل المستمرة فى هذا البيت ..

كنا يتشاجران وتسمع أبى يصرخ بأعلى صوته .. تفتح باب
الغرفة فتجدهما صامتين يتسلمان .. تتساءل :

- « هل هناك مشكلة ؟ .. »

فيرد أبى كاليفاء :

- « هل هناك مشكلة ؟ .. »

- « سمعكما تتصاحبان .. »

- « تلك التمثيلية فى التلفزيون .. كل الممثلين يصبحون ليوم ،
ويحسبون هذه براعة تمثيل . أليس كذلك يا هالة ؟ .. »

تقول أمى ساهمة وهى تنظر إلى شاشة التلفزيون :

« بلى .. بلى .. يتصايحون .. كلهم كذلك .. »

تغلق الباب وأنت تقول لنفسك : إنهما يكذبان ...

لن ينفصلا على كل حال .. أنت تعرف هذا جيدا ... ليسا من هذا الطراز ، فهما مهتمان بالأطفال .. هما من نمط الذين ينفصلون بالطلاق فى سن الثماتين ؛ لأنهم لا يطبقون الحياة معا يوما واحدا بعد رحيل الأطفال ..

لو أننى وأختى (منى) هلكن اليوم أو تركنا البيت ، فلن يظلا معا خمس دقائق أخرى ..

الآن .. اسمح لى أن أقدم لك نفسى .. (رامى عطية) .. طالب فى السنة النهائية بكلية العلوم . أختى فى الصف الثانى الثانوى ..

من ناحية الشكل أنا لست منفرا .. لست أوسم من رأيت ، لكن وجهى مريح ، فيه رجولة وصدق . من الناحية المادية لسنا فقراء ، لكننا لسنا أثرياء . نحن نشبه الكثيرين من المصريين الآخرين الذين يطلقون عليهم (الطبقة الوسطى) .. نأكل اللحم أكثر أيام الأسبوع ، وثيابنا معقولة ، وشفقتنا مريحة .. لكننا سننكشف تماما لو مرض أحدنا ، أو اتهارت البناية وصار علينا أن نجد بناية أخرى ..

لأسباب كهذه ؛ لم تكن لى علاقات عاطفية فى الكلية . أولاً أنا لم أعد أومن بالزيجات الناجحة .. كم تبلغ نسبة المقامرة فى أن تأتى بشخصين ناضجين وتضعهما فى بيت واحد وتتوقع أن ينسجما ؟ .. هذا الاحتمال عال جداً لو كان أحدهما كلباً أو سمكة زينة أو دجاجة ، لكن بالنسبة لى البشر ، الاحتمال وإد جداً .. آسف ..

ثانياً : كنت أعرف أن أمامى طريقاً طويلاً إلى أن تكون عندى شقتى وإمكانات الزواج ، خاصة أن أبى لم يدخر مليماً ...

ذات ليلة جلست أختى فى الشرفة ، ترمق الشارع وأمامها كوب شاي على الصور ..

وقفت جوارها .. إتينا نسكن فى بيت جميل واسع عزيز فى الدقى . بيت من البيوت التى تسمح لك بأن تجلس فى شرفة وتكون عالياً ، ترمق الزحام والناس من بعيد ... بيت خلق طبعا كى يشتريه أحدهم ويدفع لنا (خلو رجل) ثم يهدمه لينبنى مكانه برجاً قبيحاً ..

كانت أختى شاردة الذهن تماماً ؛ فاحتاجت إلى ربع ساعة حتى تدرك أننى هناك ..

(منى) أيضاً ليست (سعاد حسنى) ، لكن وجهها مريح ، من الطراز الذى تحب أن تنظر إليه .. وقد قالت لى وهى تنهى كوب الشاي :

- « عندما أكبر لا أريد أن أتزوج ! .. »

- « أنا مثلك .. لكن الأمر لن يكون سهلاً معك .. سوف يشخط فيك أبى ويزوجك خلال عامين .. بينما أنا رجل .. سيكون من حقى أن أنشغل بتكوين نفسى ربما حتى سن الأربعين .. »

ثم تذكرت فسألتها :

- « ما السبب فيما تقولين ؟ .. »

- « أعتقد أنه من الصعب أن يشعر المتزوجان بالسعادة .. »

كانت تفكر فيما أفكر فيه بالضبط ، فقلت :

- « ربما هناك بيوت أخرى ينعم فيها الآباء بالسعادة .. »

- « لا أعتقد .. هم جميعاً يمثلون .. كل الناس تعتقد أن أبى

وأبى عصفوران فى عش ... »

ثم أضافت وهى تنهض :

- « أعتقد أن حياة المرء وحيداً لا بأس بها ... فى هذه البنية

رجلان يعيشان وحيدين ، وهما سعيدان حقاً .. »

- « يقول الأستاذ زكريا : إنهما مخولان . لا ينامان الليل ،

وغرباً الأطوار .. »

- « ربما هو الحققد على راحة بالهما .. إن الفنان الأسمر التحيل

مريض .. مريض جداً لو أردت رأيى .. هذا يفسر غرابته .. أما الطبيب النحيل الأصلع فلا يكاد يستقر فى مصر .. »

- « الفنان اسمه (عزت) وقد عاد من الخارج مؤخراً ..

الطبيب اسمه (رفعت) .. هناك إشاعات عن رفعت هذا .. يقال :

إنه خبير روحانى أو شىء من هذا القبيل ... »

- « صديقتى تقول : إنه عالم محترم فى الماورائيات .. يدرسها

ولا يمارسها .. »

- « الفارق بين من يدرس هذه الأمور ومن يمارسها واه فى

مصر على كل حال . كلهم (مخاوى) بالنسبة للمصرى ..

معموس بشكل أو آخر .. »

- « بن الخلط بين أستاذ العقاقير الذى يدرس المخدرات ، وبين

تاجر المخدرات نفسه ، خطأ فادح .. »

- « الأسوأ أن يكون أستاذ العقاقير هذا غير متزوج !! .. »

- 2 -

توفيت أمي كما تعلم يوم شم النسيم بالضبط ..

هذا يوم يصعب أن ينساه المرء ..

لقد بدأ اليوم في ساعة مبكرة ، عندما أيقظنا أبي وراح يعد البصل والفسيح ، وكل هذه الطقوس التي يحرص عليها ..

كنت قد ضقت ذرعاً بهذه النزعات التي لا داعي لها ، وشعرت بأنني لم أعد طفلاً يشتهي أن يركب دراجته وسط الحقول أو يصطاد السمك ، لكن أبي كان حريصاً على هذه العادة بشكل شبه ديني ؛ مما يدل على أن جيناته الفرعونية أقوى مني ..

لو أراد أن يسعدني بحق ، فليركني أتعم بالنوم حتى الظهر .. هذا يوم إجازة .. لا كلية ولا محاضرات ولا مواصلات ..

هكذا تحركنا في تلك الساعة المبكرة وسط زحام هؤلاء الذين لا يريدون أن ينعموا بالنوم .. دعك من أنتى و(منى) كنا نعرف يقيناً أننا لا نعيش في أسرة سعيدة ؛ لهذا بدأنا هذا نوعاً سخيفاً مملاً من التظاهر بالسعادة . عندما تكون سعيداً لا يضيرك أن تقضى عيد ميلادك في مقبرة أو خراب ينق فيه اليوم ..

ركبنا سيارة استأجرها أبي إلى القناطر ، حيث كان زحام مرعب من هؤلاء الذين يتظاهرون بأنهم سعداء ، وهم ليسوا كذلك ..

التقطت للأسرة بعض الصور ..

مباراة بكرة المضرب بين أبي ومنى ... إلخ . كل تلك الطقوس السنوية . إن لدى درجاً مليئاً بالصور لأبي وهو يلعب كرة المضرب مع منى .. لدى صور لها وقد تعلمت المشي لتوها .. صور بالصفيرة ، وصور لها في سن المراهقة .. فما جدوى المزيد منها ؟!

ثم افترشنا العشب وبدأت طقوس أكل الفسيخ .. اللحظة التي يعتبرها أبي أهم لحظات اليوم ، وأنا بطبعي لست مولعاً بهذا السمك كريه الرائحة .. التهام الجثث للمتعمقة ليس مما يروق لي ، ومن الغريب أنهم يعتبرون هذا دليلاً على شذوذه طباعي ..

مر بنا ذلك الرجل الأصلع الخمسيني البدين .. حسن المظهر برغم هذا ..

نظر لنا في دهشة فلم أر شيئاً غريباً .. أبي يقابل عينات من هذا الرجل طوال الوقت ، ولو لم تكن نعرفه فهو يعرفنا .. أحياناً اعتقد أنه يعرف فلاناً يشبهوننا ونحن نعرف رجلاً أصلع يشبهه ..

لكن عينيهِ اتسعتا وهتف عندما رآنا :

« حقاً هو عالم صغير ! »

وصافح معصميهما وهما منهما كان فى الأكل ، بطريقة المصارعة التى ترغهما على عدم النهوض .. برغم أن مجيئه أحدث بالطبع حالة غير عادية من الارتباك ..

« تفضل .. »

« سبقتكما .. »

ثم نظر لى ومنى فى اهتمام ، وقال :

« هذان هما للذرية إذن .. لقد كبرا .. »

ولاحظت أن أبى لا يبدو وئوداً على الإطلاق .. إنها تلك العلامات المنيرة بقرب الانفجار . الوريد فى جبهته ينبض كما هى العادة .. ولونه يحمر ببطء شديد . قالت أمى تفسر الموقف :

« د . (مصطفى) .. قريبى ... »

قال الرجل مفسراً المزيد :

« كنت فى الخارج لفترة طويلة . من الغريب أن يلتقى الأقارب فى القطار .. لكن يبدو أن هذا هو ما يحدث هنا .. »

ووقف للحظة ينظر إلينا وإلى أبى ، ولكن أبى ظل منهما فيما يأكل .. وقضم قضمة شرسة من البصلة التى يحملها ، وراح يزدردّها : من ثم بدأ الرجل يشعر أخيراً أنه أنهى مهمته وأن انصرافه صار واجباً ..

« تشرقنا .. سوف نلتقى ثانية .. »

وهز رأسه من جديد ، وابتعد وهو يركض تقريباً .. لم يكن أكثر النقاءات مع الأقرب حرارة ، وقد شعرنا بشكل ما أن هناك خلافاً قديماً بين هذا الرجل وأبى .. كل رجل يحمل عدة خلافات مع أهل زوجته على كل حال ، ما لم يكن ملاكاً وهم ملاكة ..

المهم أن اليوم انتهى بمعجزة ما ، وسرعان ما كانت السيارة تعود بنا إلى البيت .. أعرف باقى السيناريو .. سوف تنام كالموتى بقية اليوم ، ومن حين لآخر يصحو أحدهما ليشتكو من (النار المشتعلة بداخله) ، ويجرع بعض المياه للغازية ، ثم يحاول النوم من جديد .. أنا لم أكن قد تذوقت الفسيخ ، لكنى التهمت كمية من البيض الملون تكفى لجعلى أستمع بنصيب وافر من تلك البراكين التى تنفجر وتفيض فى معدتك .

تذكر لنى صحت عصراً لأسمع صوت مشاة من غرفة أبوى .. كنا يتصايحان كالعادة .. أبى بطريقة العصبية التى تؤشك على تفجير شرايين رأسه ، وأمى بطريقة الهادئة ..

سمعت مقاطع مثل :

« لماذا يظهر الآن ؟! »

« هذا ليس نبنى .. »

« وهو وقع كذلك .. »

« لم يفعل شيئاً سوى أن حيّلتا .. »

كنت أعرف أنني لو قرعت بابهما لوجدتهما في أسعد حال كالعادة ؛ لهذا وضعت الوسادة على رأسي وحاولت أن أعود للنوم ..

لابد أن الكارثة حدثت في الثامنة مساء .

كنت ومنى جالسين نشاهد التلفزيون بينما والدانا ما زالا نائمين . سمعنا ضجة غير عادية من غرفتهما . هذه المرة لم تكن هناك مشاجرة ، بل هناك من يجرى .. يسقط أشياء ..

جرينا إلى هناك لنجد أن أمي قد توفيت...

استعادة هذه اللحظات قاسية جداً ؛ لذا لن أطيل الوصف ؛ فهو غير ممتع بحال .

لقد توفيت أثناء النوم ، وأصيب أبي بهلع مجنون جعله لا يعرف ما يقوم به .. راح يركض للبواب ثم يعود .. يرفع سماعة الهاتف ثم يضعها ..

هتفت منى كالمسموعة :

« هناك ذلك الطبيب .. تلك الطبيب .. »

عرفت على الفور ما تقصده ، وجريت على الدُرج كالمجنون ، ورحت لقرع بابه مراراً ...

أخيراً انفتح الباب وظهر لي .. بالمنامة .. انتثر الشعر الباقى على جتبي رأسه .. نحيلاً كعود الخلة ، وكان يحلق ذقنه كما هو واضح من الصابون الذى غطى نصف وجهه . لكنه بدا لي وقتها رائع الجمال ..

قلت له :

« م .. مم .. ف .. ف .. ا .. ب ... ك .. ك .. »

يبدو أنني كنت بليفاً جداً ؛ لأنه فرع يحضر جهاز الضغط والسماعة ، ولحق بي بالمنامة والخفين ...

عندما دخلنا الشقة كان ينهث ويكافح من أجل الهواء ، حتى أركت أنه بحاجة إلى طبيب هو الآخر .. إن لياقته معدومة أو هو يموت الآن ..

في غرفة النوم ، التي تحولت إلى زنزانة مبطنة في مصحة لأمراض عقلية ، تأمل الجثة الرافدة على الفراش ، والتي كنت أتوقع أن يخرج عصا الساحر ليحركها ويعيدها للحياة .. أليس طبيبياً ؟

قاس الضغط مرتين وأصغى للقلب .. ثم تساءل عما حدث بالضبط ..

قال أبى وهو يرتجف :

- « لم تصح من النوم .. هذا كل شيء .. »

- « هل من شيء أكلته أو شربته ؟ .. »

- « الفسيخ .. الكثير منه .. قبل هذا كانت فى خير حال .. »

فكر بصق للحظة ...

فيما بعد قال لى :

- « هناك نوع من التسمم ينتج من الفسيخ والمطبات الفاسدة ، ويدعى (البوتوليزم Botulism) ، ولو ترجمناه للعربية لكان معناه (السجقية) .. لكنه لا يقتل بهذه السرعة ولا يبدو كهذا .. »

لكنه بالطبع لم يجد وقتاً ليقول هذا كله .. لقد حك رأسه الأصلع وقال :

- « لا أجد علامات تدل على نوبة قلبية .. ولكن أوان البحث عنها قد فات على كل حال .. »

ويبحث فى جيب منامته عن شيء .. عبة ما .. أخرجها وأخذ منها قرصاً .. هذا الرجل سيموت الآن وسوف يترك لنا جثتين .. ليته يرحل بسرعة ! ..

لم يجد الكثير مما عمله ؛ لأنها كانت قد توفيت فعلاً .. فقط كانت مشكلته كيف يخبرنا بهذا ببطء

كما قلت : لن أطيل عليك .. فقط أقول : إننى تلقيت أول ضربة قاسية فى حياتى ، وتعلمت تلك الألعاب الخبيثة التى تلعبها الأيام من حين لآخر ... الموت المفاجئ ! .. حدثنى أنا عن الموت المفاجئ ! ..

عرفت وقتها أن الحياة فى بيت يتشاجر فيه الأهل كثيرًا ، خير من بيت لا يوجد فيه سوى أب واحد ..

وعرفت أن بيتنا سيكون هادئًا جدًا .. هادئًا أكثر من اللازم ...

- 3 -

في الأيام الكئيبة التي تلت ذلك ، جاءت عمى لتقيم عندنا ..

عمى غير متزوجة ، وفي الخمسين من عمرها ، وقد بدا للجميع أن هذا هو الحل المعقول .. سوف نعى بنا ونعى بها .. تفعل الأشياء التي لا تستطيع عملها سوى امرأة ، ونقدم لها نحن أسرة تصير فرداً فيها . بالطبع كانت إقامتها معنا مستحيلة عندما كانت أمي حية ..

كانت عمى رقيقة لطيفة الحاشية ، تختلف كثيراً عن أبي ، وإن كانت طيبة مثله .. أبي طيب القلب لكنه عصبي فعلاً ، وهذا ما لم يفهمه كثيرون .

ولم تفهمه (منى) أختي ..

في الحقيقة كانت (منى) تزداد عصبية ، ولزادت صمناً وغموضاً ..

لاحظت هذا وقلت لنفسى : إن فقدان الأم في فترة المراهقة ليس تجربة هينة على الإطلاق .. كانت منى قد صارت شخصية سميحة بحق ..

صارت صموتاً .. عندما يكلمها أحد لا تبدي أى انفعال .. تصفى ولا تعلق .

لما عندما يكلمها أبى فهي لا تبدي على الإطلاق أية علامة على أنها تسمعه .. وقد أصدر لها أمراً ذات مرة فلم يبد أنها سمعت حرفاً ..

رأيت وجهه يحترق ، والوريد إياه ينتفخ ، فهرعت أنفذ ما طلبه ، رحمة به وبها ..

قل لها دعابة .. أية دعابة .. احك عن أطرف شيء رأيته أو سمعته في حياتك .. سوف تنظر إليك وعلى شفتيها شبح ابتسامة ، ثم تفهم :

- « لم م م ... »

وهكذا تترك لك وغد سمج وتكره نفسك للأبد ..

أما الأغرب فهو أنها تطلق غرفتها بإحكام ليلاً .. لم تكن معتادة هذا .. وقد قلت لنفسى : إنها قد كبرت وصارت الخصوصية من حقها ، لكن لماذا قررت أن تكبر فجأة خلال شهرين ؟

فيما مضى كانت غرفتها مغلقة الباب لكن من دون مزلاج ، وكنت أقرع الباب عدة مرات قبل أن ألتقى الإنن بالدخول .. أمي

فقط كانت الوحيدة المسموح لها بفتح الباب بلا استئذان . وكانت أمى تؤمن بأن باب غرفة المراهق يجب ألا يفتح من الداخل أبداً .. كانت تتوقع أن تدخل ذات يوم لتجد (منى) تضع الهاتف على أذنها وتكلم حبيبها فى دلال ، كما تفعل (ماجدة) فى الأفلام العربية القديمة .. أما أنا ، فبالطبع ستدخل لتجدنى أنتزع المحقن الملىء بالهيريون من ذراعى .. لهذا كان عنصر المفاجأة ضرورياً .. هذا سلاح لا يجب التخلي عنه ..

الأغرب هنا أن (منى) تتحفظ مع عمى ذاتها ، فلا تسمح لها بلمسها أو دخول حجرتها أبداً ..

أما عن أبى فلم يكن على ما يرام بدوره ..

بدأت النوبة الأولى فى ليلة من شهر مايو ..

كنا فى غرفتنا ، وكان هو أمام التلفزيون ، وفجأة سمعته يصرخ بقوة ..

هرعت إلى غرفة الجلوس متوقفاً كارثة .. لحسن الحظ لم أجد جثثاً ، لكنه كان واقفاً فى وسط الغرفة .. العرق يחדث على جبينه ، وعيناه متسعتان ، وهو ينظر حوله ..

« ماذا هناك ؟! .. »

« هناك من جاء من خلف المقعد واقترب منى .. من ناحية اليمين .. عندما شعرت به استدرت وصرخت فلم أجده ... » غريب هذا ..

هكذا انطلقت لبحث فى أرجاء الغرفة وخلف المقاعد .. لا شيء ..

قمت بالبحث خلف الستائر .. لا شيء ..

لا يمكن أن يغادر الشيء عن طريق الصالة ؛ لأن أختى كانت هناك فى هذه اللحظة ..

قلت له وأنا أربت على كتفه :

« لا يوجد شيء .. فلتطمئن .. »

انتزع يدي من على كتفه فى غلظة ، وقال :

« هل تعنى لفتى أخرف ؟! .. »

« بل أعنى أنه لا يوجد أحد ! .. »

لمذا لا يقبل الناس فكرة الهلوس ؟ .. يعتبرونها إهانة .. من الممكن أن تحتفظ بصفاء عقلك ونكائك ، لكن حواسك تخدعك .. هذه ليست إهانة ..

عند أبى يكرر فى عصبية :

« أنا لا أهدى .. هذا الشيء جاء من اليمين .. رأيته
بوضوح تام .. »

« هل بدا كبطلان ؟ .. »

« ربما .. »

قمت بإعادة التفقيش ؛ من أجل إرضائه لا أكثر ، ثم هزرت
رأسي ..

« هذه الخدعة البصرية تحدث كثيرا لمن يلبسون العوينات
ويشاهدون التلفزيون في الظلمة . يرون ظلالاً تتحرك على ركن
العين .. »

نظر لي وابتسم في شفقة لسبب لم أفهمه ..

بالفعل .. أنا عبقرى .. أبى لا يلبس عويناته ، والغرفة مضاءة
كأفضل ما يكون !

-4-

للتوبة الثانية حدثت بعد أسبوع ، عندما أخذت إلى النوم ..

منذ توفيت أمى كف أبى عن النوم فى غرفتهما المشتركة ،
وهى مسألة نفسية أفهمها طبعا .. قمنا بإعادة ترتيب الغرفة
واقفنتها عمتى غرفة لها ، بينما أخذ أبى غرفة صغيرة فى
نهاية الممر جوار المطبخ . هناك ستار كثيف يفصل الممر عن
الصالة .. وللغرفة مزية أخرى هى قربها من الحمام ، وهو شيء
محبب لمن يشكو تضخم البروستاتا ..

دوى صراخ أبى .. طبعا كان لابد من لحظة يخرق فيها جدار
نومى ؛ من ثم نهضت وقلبى يتوثب ، وجريت إلى الصالة ..
فقط لتنظلم الدنيا لربع ثانية بسبب نهوضى المفاجئ ..

اصطدمت بالمستار فمزقته .. ثم اندفعت نحو الردهة .

هناك كان أبى يجلس على حافة الفراش يلهث فى جشع .
العرق يغمر جبينه بالكامل ..

وعندما استطاع الكلام كانت عمتى و(منى) قد لحقنا بنا ..
قال لى :

- « هذه المرة كان يقف أمامي ... عينان حمراوان تماما تنظران إليّ !.. يبدو كبشر .. لكنه ليس كذلك .. كتلة سوداء هائلة .. رأيته .. رأيته .. »

- « وهل كانت الغرفة مظلمة ؟ .. »

قال دون حذر :

- « أنا أبقيتها مضاءة .. »

وهذا اعتراف منه بأنه يخاف النوم في الظلمة ... لا ألومه .. لا ألومه .. من كان بلا خطيئة فليرجمه بحجر ، ومن كان شجاعاً منكم فليمر بما مر به ..

عمتى قدمت له الماء المثلج بالسكر ، وأصرت على أن يفرغ مثانته في الحمام .. هو يكرر في عصبية أنه لا يريد ، وهي مصرة كالجحيم لأن هذه هي الطريقة المثلى للقضاء على (الخضة) . عمتى لا تعرف أن هذه بالفعل هي الطريقة المثلى لإعادة تشغيل الجهاز العصبي (الجبر سيمثاوى) ، من ثم يخف عمل الجهاز السمبثاوى .. أى يقل أثر التوتر والرعب على جسده ..

كنت أنا أفتش كل شيء كالعادة . أفتح خزائن الثياب . أفتش تحت الفراش .. دخلت المطبخ وبحثت ..

روايات مصرية للجيب

39

بالطبع لا يملك اللصوص قدرات خارقة للعادة ، ولا يتبخرون .. بهم مثلنا .. يخرجون من الأبواب والنوافذ ، ويحدثون صوت خطوات .. هم فقط يفعلون هذا أسرع منا ..

في طفولتي كنت أسمع لفظة (حرامى) فأتخيل كياتاً مرعباً غامضاً .. وعندما سمعت أن جارتنا (أمسكت بحرامى فى المسقط) ، تخيلت ذلك الكائن المخيف أسود مشعراً كأنه فار كبير ، وقد ربطته جارتنا بالسلاسل ، وبالطبع رفضت أن ألقى نظرة عليه .. كنت أعرف أنه سيحطم السلاسل ويمزق الجميع ويهرب ..

لم أجد شيئاً .. على أبى أن يقتنع بأنه يرى أوهاماً ..

عاد من الحمام ، وللمرة الأولى نظر إلى طويلاً ، ثم قال بصوت خفيض خائف خجول :

- « هل بضايقتك أن تنام معي ؟! .. »

بدالى هذا غريباً .. أنا الذى كان من حقه أن يطلب شيئاً كهذا فى طفولتي ..

لكنى لم أستطع للرفض ؛ لذا ذهبت لحجرتى وحملت وسادتي .. ولا داعى للغطاء طبعاً لأن الطقس حار ..

في العمر قابلت (منى) التي نظرت إليّ طويلاً ، ثم ابتسمت
في توحش وهمست :

- « دعه يتعذب قليلاً !.. »

لم أستطع فهم ما أرادت قوله ، لكنني على كل حال افترشت
الأرض وتوسلت لأبي كي يخلق النور ... لو كنت مسلّام على
الأرض بقية الليل فليسمح لي بمتعة الظلام على الأكل ..

سدا الظلام فسمعته يقرأ المعونتين وآية الكرسي ، ثم قال لي :

- « لم تجد شيئاً بالتأكيد ؟ .. »

- « لا يوجد شيء يا أبي سواي .. »

- « هذا البيت مسكون أو إنني بدأت أجن .. »

- « أنت مرهق فقط يا أبي .. هذا كل شيء .. »

ثمة شيء يحطم الأعصاب في ضعفه هذا .. أبي عصبى .. لا يسمح
الضعف البشري ولا يقبل الزلازل من أي نوع .. فليبق كذلك !..
أما هذا الوهن فيلتهم روحي ويشعري بقطوط شديد . عندما
يصدر الأسد أنني خائفًا كقط جريح .. فهذا يمزق قلبك فعلاً

الأسد يجب أن يزار .. يزار بقوة وشراسة ..

الأسد يجب أن يفترسنا !!

بدأت أغوص في حالة اللا يقظة اللا نوم إياها ، ويبدو أنني
رأيت حلمًا قصيرًا أو حلمين من تلك الأحلام القصيرة التي تسبق
العرض الرئيس .. تلك الأحلام التي تشبه الجريدة السينمائية
وأفلام ميكى ماوس .. سوف يبدأ الفيلم الكبير حالاً ، وسوف
يكون فيلمًا ممتعًا أواجه أنا فيه عصابات قطاع الطرق في
الصحراء ، ثم أفوز بحب (ميرفت أمين) .. السبب هو أنني
رأيتها في فيلم منذ يوم وبدأت لي فاتت

- « راسى .. »

- « هه ؟ .. »

انتهت العروض القصيرة .. وعدت أدرك أنني على الأرض
وأبي على الفراش على بعد متر .. كان يقول :

- « لو كان هذا الظل يمثل أمك رحمها الله .. ألا يجب أن
يشبهها ؟ .. »

- « بلى .. هذا ما أعتقد .. »

سدا الصمت .. ومن جديد أدركت أنه يقول لنفسه : إنه
لا يمثلها .. إذن .. فنيطمئن ...

ومن جديد بدأت العروض القصيرة المرححة قبل الفيلم الكبير ..

و ... أوف !!!

لم أدر متى ولا كيف انفردت قدمه الغليظة الحافية في بطني ؛
فاطلقت صرخة الاحتضار ، وسمعتة يقول في الظلام :

- « آسف لم أرك !.. فقط أردت أن أشرب !!... »

قلت وأنا أبحث في جدار بطني عن أحشاء خرجت :

- « لماذا لم تقل لي بالله عليك ؟!.. لماذا لم تطلب هذا مني

بوضوح ؟!.. »

- 5 -

في الصباح كنت كل عظمة في جسد مهشمة ، لكن جدار بطني
كان موشكاً على التمزق .. برغم هذا وجدت من القوة ما يسمح
لي بأن أسأل (منى) ونحن نتناول طعام الإفطار على الواقف في
المطبخ كعادتنا :

- « ما كل هذه السلبية ؟.. لقد قلت أمس : إن الرجل يستحق ،
أو شيئاً من هذا القبيل .. ما الذي فعله بالضبط ؟!.. »

كانت تلوك لقمة من الخبز بالجبن .. تلوكها في شيء من
التوحش والعصبية . فلما سمعت ما قلت نظرت إليّ ولم تعلق ..

عنت أقول في إلحاح :

- « ليس ذنبه أنه تشاجر معها يوم وفاتها .. هذه مسألة
أعمار لا يعرفها إلا الله .. »

هنا نظرت إليّ بعينين ناريتين .. (منى) لها عيناان فاتحتا
اللون تصيران ذهبيتين في الشمس ، وعندما كنت أغضبها في
طفولتي ، بأن أكرس لها لعبة أو أمزق صورة تحبها ، كانت تنظر
إليّ تلك النظرة التي تذكرني بالنمر الغاضب ، وقالت :

- « أنت تعرف جيداً .. »

- « أعرف أى شيء ؟ .. »

- « لقد عاد الإحساس بالذنب يطارده .. عندما ينجو القاتل من الشرطة فإن ضميره يستمر فى المطاردة ! .. »

قلت فى غباء ، وقد بدأ الطعام يتساقط من جانبي فمى :

- « هل جنت ؟ .. ! »

- « أنت المجنون لو لم تكن قد فهمت .. هذا الرجل قتل أمى ! .. »

كان الأمر يفوق تصورى ..

يفوق أية مشاكل عائلية تكون قد خطرت لك .

هكذا اضطررت إلى أن أخذها خارج البيت تماماً .. أخذتها إلى مكان هادئ بعيد عن الأعين ، وعدت أسألها عن هذا اللهراء الذى قالته.

قالت لى فى عصبية :

- « أنت تعرف .. هذا الدكتور (مصطفى) الذى قابلناه فى القناطر .. كل شيء يقول به كان معجباً بأمى أو تقم لها فعلاً .. لم يتحمل أبى فكرة ظهوره المفاجئ هناك ، وأنت تعرف أنه صار شديد العصبية .. »

- « أنت مجنونة ! .. »

- « ربما .. وعندما عدنا إلى الدار دارت مشادة قوية بين أبى وأمى .. كنا نلتمس كالموميئات ، بينما احتدم الموقف فحدث شيء ما .. ربما كتم أنفاسها بالوسادة .. ربما دفع رأسها فارتطم بحاجز الفراش .. ربما أى شيء ... ما أعرفه هو أن امرأة سليمة للجسد ماتت فجأة .. »

- « لا تعنى كل مشجرة أن »

- « وربما لم يمسخها ، لكن المشجرة أحرقت جهازها العصبى وأرهقت قلبها .. وها هو ذا الدليل .. إن شبحها يطارده وينقص حياته .. إنه عاجز عن الحياة بشكل طبيعى .. أنا قرأت قصة (ماكبث) فى المدرسة ، ورأيت كيف أن شبح الملك العجوز ظل يطارد قاتليه .. »

قلت ولنا ليل شفتى بلساتى :

- « منى .. لقد كان هناك طبيب .. بل طبيبان .. لم يريا ما يريب »

- « الطبيب الأول أستاذ كبير .. ما دام لم ير شيئاً مريباً فقد افترض قلتي أنه لا داعى للتدقيق .. ونحن لم نتهم أحداً .. لو كان رفعت هذا أحمى »

- « من الصعب أن تخفى أحداً من دون أنثر .. هذه أشياء يعرفها الأطباء .. »

- « لا اعتقد أنه كان يملك الوقت الكافي للتدقيق .. »

فكرت حيناً ثم قلت لها :

- « أنت مصابة بالبارانويا .. »

- « وما هي ؟ .. »

فلا تنس أنها طالبة في الثانوي .. تحتاج إلى الكثير جداً حتى تصبح حكيمة عارفة بكل شيء مثلي ، أنا الذي أكبرها بأربعة أعوام .. قلت لها :

- « جنون الاضطهاد .. الشك في الآخرين .. »

- « ربما .. لكنك تحتاج إلى ما هو أكثر من الكلمات كي تقتضى براءة أبي .. »

- « وماذا تتوین عمله ؟ .. »

- « لا شيء .. ليس في يدي شيء ولا أستطيع عمل شيء ، لكن ثق بأنني سأتزوج أول من يطلب يدي ؛ لاغر من هذا البيت .. وحتى يأتي ذلك الحين لن أسمح لأبي بأن يلمس يدي .. إبتنى أتوقع أن يجيء دوري في الخفى .. »

كان كلامها عاصفة اقتلعت الكثير من سلامي النفسي ..

لكني بالطبع لم أصدق حرفاً مما تقول .. ولست مستعداً للشك في تلك الأرملة التي هي أباي ، خاصة وأنا تحت سقف بيته ، آكل وأشرب وألبس من ملته ..

إن فكرة الأب غالبية مقدسة .. الأب معنى عملاق رهيب ، ولا يمكن أن نسمح له بأن يتلوث بهذا الهراء الصبياني ..

نظرت إليها في عينيها وقلت :

- « اسمعي .. أنت تحبينني ، اليس كذلك ؟ .. »

بدت الرقة في عينيها لأول مرة ، وقالت :

- « بلى .. »

- « نحن أول أخوين عرفتهما بحبان بعضهما فعلاً .. كل أخ وأخت أعرفهما بينهما ما صنع الحداد .. يبدو أن هناك لغة اسمها (لغة الأخت الصفري) حيث تكون دائماً سميحة مزعجة واثية .. والأدهى أن الأبوين يصدقان ما تقول بلا مناقشة .. »

- « لكننا نختلف .. أنا أختلف .. »

- « إنني أريد أن تقابلي معي د . (رفعت) جارنا ، وتحكي له كل هذا الهراء الذي قلته .. »

« وما جدوى ذلك ؟ .. »

« إما أن يصدقك ، وهذا يعنى ثورة تجتاح حياتنا ، ولن يعود شيء كما كان .. وإما أن يثبت لك أنك حمقاء ، وهذا يريحك ويريحني .. أن تكون أختى معتوهة لأفضل بمراحل من أن يكون أبى قاتلاً ... »

« صدقتى أنا أدعو الله أن أكون معتوهة .. »

« جميل جداً .. سأعتبر هذه موافقة على لقاء هذا الطبيب النحيل .. »

.. 6 -

عندما فتح د. (رفعت) الباب ، بدا على وجهه تعبير من الرعب وعدم التصديق ، حتى إننى تساءلت عما إذا كنا قد جئنا وهو يقوم بإعداد القبلة للحارقة الثالثة ، أو تعبئة الكيلوجرام الرابع من الهيروين ، أو طباعة المليون الثانى من العملة المزيفة ... نفس التعبير الذى يبدو على وجوه الجواسيس فى السيما ، عندما يفتحون الباب ليجدوا ضباط المخابرات واقفين ..

فهما بعد .. عرفت أنه ليس ووداً على الإطلاق ، ويمقت الزوار من أعماق قلبه . كل الأوقات عنده غير مناسبة .. كل من يطرق بابه هو آخر شخص يتمنى أن يراه فى تلك اللحظة ...

كان يرتدى ذات المنامة التى زارنا بها من قبل ، ويبدو أنه كان منهمكاً فى الطهى .. لا أعرف نوع الطعام الذى يطهونه فى الثامنة مساءً ، لكنه كان يفعلها ..

نظر إلى ونظر إلى (منى) متسائلاً : فطلبت منه أن يسمح لنا بوضع دقائق من وقته .. كان يشعر بأنه خدع . لقد انتهت علاقته بنا منذ غادر مجلس العزاء الذى حضره مجاملاً .. فلماذا نريد بعد هذا ؟ .. وقد نظر إلى متسائلاً بما معناه (هل هو أبوك هذه المرة ؟) فابتسمت بمعنى أنه لا داعى للقلق ..

هكذا دخلنا إلى صالة واسعة قليلة الأثاث .. ليست متسخة نصية الحال كما يجدر بالغراب ، لكنها كذلك لا تتم إطلاقاً عن يد امرأة .. هذا رجل يحب النظافة ، لكنه لا يجيد التنظيف ..

هناك تماثيل مخيفة على (البوفيه) ، يبدو أنها أفريقية ، وهناك بعض حزم الثوم معلقة فوق النوافذ .. كل الناس تعلق الثوم في الشرفة ، لكنه يعلقه داخل البيت .. هناك صور فوتوغرافية يستحيل تبين ما فيها ، وهناك لفظة (سينوى) مكتوبة بالعربية بحروف كبيرة على باب غرفة اعتقد أنها غرفة نوم .

آيات قرآنية معلقة بكثافة غير عادية ، تشعرك بأنها معلقة لمنع نوع من الاطمئنان النفسى وسط هذا الجو الغريب ...

صوت أم كلثوم يدوى من جهاز كاسيت موضوع هناك عند مدخل المطبخ ..

ربما يكون مجنوناً وربما لا ، لكن الأكيد أنه غريب الأطوار .. جلسنا على مقاعد (أنتريه) عتيق .. بينما ذهب إلى الداخل وعاد بعد لحظة بزجاجتى مياه غازية . طبعاً لم يحضر فتاحة ونسى هذا تماماً .. هكذا أمسكنا بالزجاجتين غير عالمين ما يجب عمله .

قلت له على سبيل المرح :

- « يبدو أنك كنت تعد الطعام للغد .. »

- « بل هو لليوم . أصبحوا متأخرًا جدًا كعادتى ، لذا يمكنك أن تعتبر هذه هي الظهيرة عندي .. »

- « تستعمل الكثير من الثوم .. »

قلت لها مستكشفاً : لعله يشرح لى شيئاً عن سبب تعليق الثوم بالداخل ، فقال وهو يجلس :

- « هذا لا شيء .. إنهم يأتون من النوافذ وهم مصممون هذه الأيام على لا عليك .. بالمناسبة ، أى يوم هذا ؟ .. »

- « الثلاثاء .. »

ضرب صلته وقد تذكر ، وهتف :

- « الثلاثاء .. يد (بيزارو) !.. لقد نسيت تماماً .. أرجو أن تنتهيا من الكلام بسرعة ، لأننى سألتهم طعامى وأغادر البيت حتى الصباح .. أنت تفهم هذه الأمور ... »

كنت أنظر إلى (منى) فأراها لا تبعد عينيها لحظة عن الرجل ، فلما بلغت المحادثة هذا الموضع بدا عليها عدم الارتياح تماماً وكأنها على وشك أن تفر أو تصيح : « فلنذهب !.. هذا الرجل مخبول تماماً .. كما قالوا وألعن !.. »

لكنى تكلمت قبل أن تفر ، وقلت لأورطها :

- « منى .. تحمل بعض الشكوك ، ودعنى أطلب منك يا د. رفعت ، وأنا أعرف أنك رجل شريف ، أن يبقى ما نقوله هنا سرًا .. »
ابتسم ابتسامة لطيفة وقال :

- « أنت تجرب الكبار طبعًا .. دائماً يحونك بشرفهم أن ما تقول سيظل سرًا ، ثم يخبرون به الجميع .. أليس كذلك ؟ ... تحكى الموضوع لأهلك فتجدها أخبرت أباك .. تحكىه لأبيك فتجده أخبر معلمك .. دائماً هم ينقضون العهد ، لأنهم يعتقدون أنهم يملكون مبررات قوية وحكمة عالية . والأدهى أنهم لا يكفون عن وعظك عن قيمة العهد وأهمية كتمان السر .. »

هنا تعالت ضحكة عالية من منى .. لقد راقبت لها هذه الملاحظة .. هنا قلل د. (رفعت) :

- « نعم .. دعنى أصارحك بأن الكبار من أسوأ المدعين الذين يمكن أن تقابلهم ، ولا يقلل من هذا حقيقة أنني منهم .. لكننى أعدك بأن أكون شريفًا فعلاً كما ترى فى .. »

هكذا .. بعد هذه الملاحظة ، اتحل لسان الفتاة قليلاً ، وبدأت تحكى ..

لما انتهت (منى) من كلامها وضع د. (رفعت) ساقاً نحيلة على ساق أكثر نحولاً .. هذه العناية توشك إلى التحول إلى سروال قصير (ثورت) عندما يجلس .. وقال :

- « بصراحة يا منى .. لا أرى أى بصيص من الحقيقة فى هذا الذى تقولين .. للموت خنقاً يترك علامات لا شك فيها ، والأطباء الشرعيون يجدون علامات مهمة مثل الكدمات حول الفم وما إلى ذلك .. من الصعب أن تكتفى نفس إنسان بالوسادة من دون أن يترك أثراً .. دعك من أن حدسى بقول لى إن أباك كان فى حالة عصيرة فعلاً .. حالة من فقد زوجته وليست حالة من يخشى الفتضاح لمرء ... »

نظرت إليه منتظرة تطيقه النهائى ، فقال :

- « أنت واهمة على ما أعتقد ... »

قللت فى تحد :

- « والكوابيس التى تطارده طوال الوقت ؟ .. كل هذه الظلال ؟ »

ابتسم ابتسامة جعلت وجهه يمتلئ بالتجاعيد ويبدو محبباً نوعاً ، وقال :

- « الموت ليس بالضبط تجربة سهلة أو لطيفة .. أن يصحو المرء ليجد جثة في الفراش جواره ، فهذه تجربة تغير من شخصيته وعقله . إن رؤية الظلال ليست أسوأ ما يمكن أن يحدث .. ورأى الخاص أن أباك البناس يعانى ضغطاً عصبية هائلة ، فلا تضيفى إليها ابنة متشككة .. »

ثم نظر إلى ساعته وهتف فى دعر :

- « موعد بيزارو ! أنا أسف .. لكنى مضطر إلى الرحيل .. لا يمكن أن أقضى الليلة هنا .. »

ونفض من دون كلمة أخرى ، وكأنه يتوقع أن تبقى حيث نحن فالبيت بيتنا ..

تبادلت مع (منى) نظرة طويلة ..

كلام الرجل غريب ، لكنه منطقي ..

وهكذا أشرت لها كي تنهض .. وألقيت تحيتى عليه بصوت عال ، فرد من داخل غرفة النوم حيث كان يبذل ثيابه بالتأكد ...

رائحة الشياطين هذه .. لا أعرف كيف شمناها بعد ما غادرنا البيت ولم نشمها ونحن بالداخل ...

كدت أقرع الجرس من جديد .. لكن سمعت صوت الرجل يصيح فى سخط .. واضح أنه وجد الطعام المحترق ..
لم يتناول طعامه .. ومن الواضح أنه لن يفعل .

- 7 -

يبدو أن (منى) قد هدأت قليلاً بعد هذا اللقاء ..

لم تتكلم عنه .. لكنها صارت أكثر اهتماماً بأبى ، وقد قدمت له كوب ماء فنظر إليها بذهول ؛ لأنه لم يعد هذه العناية الخارقة منذ وفاة أمى ..

من الواضح أن حياتنا مستقرة ثانية ، ونرجع أسرة نتظاهر بالسعادة كما كنا ..

من الواضح .. لكن هذا لم يحدث ، ولهذا قصة أحكيها لك الآن ..

كنت ماراً أمام غرفة (منى) عندما سمعتها تتأدنى .. لم تكن استغاثة ولا مناداة تودد ، إنما هي طريقة المناداة التى يستعملها من يراقب حيواناً غريباً ويكره أن يزعجه فيكف عما يفعله ..

كانت واقفة هنالك .. ما بين المكتب الذى تتأثرت عليه كتب الكيمياء ومذكرات الدروس ، وبين الجدار .. بعبارة أخرى تقف بين ضوء الأباجورة والجدار ..

لهذا ارتسم ظلها على الجدار عملاقاً ..

كانت تشير إليه فى حذر .. وقالت لى :

- « تعال ! ... »

دنوت منها ، فأشارت إلى الظل وقالت :

- « هذا لا يشبهنى ! .. »

ابتسمت فى مرح باعتبار هذه لعبة جديدة .. لكنها قلت فى جدية :

- « هل ترى خصلة الشعر العلية فى قمة الراس هذه ؟ .. أنا قد قصصتها فى الحمام منذ ساعة .. لاحظ أن الشفتين أكثر بروزاً .. »

لم أنظر إلى الظل ، وقلت لها فى رفق :

- « منى .. كفى عن هذا .. إن الفارق بين الوسواس والجنون قد يكون شعرة .. صدقنى .. »

- « فقط .. انظر .. »

نظرت إلى الظل فلم أر أى شيء مهم .. مجرد ظل .. دفعتها جانباً فتحرك الظل معها .. دخلت معها دائرة الضوء فأريت ظلى يرتسم على الجدار ..

رحت أحرك لأملى بحركات مضحكة وأنا أراقب الظل ، وقلت :

- « هل ترين ؟ .. أعترف أنه أبرع منى ، لكنه ظل ... يمكنك أن تستريحى لو أطفأت هذا المصباح ونمت .. إنه منتصف الليل فعلاً .. أعرف أن الامتحانات قريبة .. لكن من الممكن أن تصحى مبكراً .. »

قالت وهي تعود لدائرة الظل :

- « أنا متأكدة من أنه يراقبني ، وأتني عندما أدركت ظهري له راح يتحرك حركة مستقنة ، ولربما كان يسخر مني .. »

هنا فاض بهي الكيل ، فصحت في عصبية :

- « كفى عن هذا وإلا أخبرت أبي .. أبي لن يصغى لك ، بل سيجرك جراً إلى الطبيب النفسي ! .. »

- « هل تراني مجنونة فعلاً ؟ .. »

- « أنت في الطريق بسرعة تحمدين عليها .. »

هنا فقط فقدت تماسكها وتهافتت . جلست مستندة إلى المكتب وراحت تنشج في حرارة . غطت وجهها بشعرها وهتفت :

- « نعم .. لا أدري ما حل بي .. أنا جننت فعلاً .. لن أستطيع أن أدخل الامتحان هذا العام ! .. »

هذا ما كان ينقصنا !

دنوت منها لأضع يدي على كتفها ، عندما خيل لي للحظة شيء غريب ..

الظل على الجدار لم يكن يبكي !...

أغمضت عيني وفتحتها فرأيت الموجودات كما عرفتُها . وعادت قوائين الفيزياء تحكم .. من الواضح أن أعصابنا جميعاً مرهقة فعلاً ...

أغضت الأباجورة اللعينة ، ووقفت جوارها على الضوء الخافت للقلم من الصالة ، ووضعت يدي على شعرها الذي يهتز بالبكاء ...
ممكينة هذه الطفلة .. ممكينة !..

لو كنت لُخاً جديراً باسمه لفعت شيئاً ما ... لكن ما هو بالضبط ؟ ...
ما كان بوسعي فطنته ، وهو أن طلبت رأي (رفعت إسماعيل) ...
بهذا لم يعد في متناول يدي سوى كلمات المواساة ، وأن أقنع (مني) بأنها لو رسبت في الامتحان لتألمت أمي كثير الأكم ..

لم تكن الليلة كلية ليلة ..

عندما اتجهت إلى غرفتي لأنام بعد ما تكلمت كثيراً جداً ، رأيت على جدار الممر ظل عمي وهي تتحرك في الصالة .. كان شاحباً باهتاً لأن الضوء منتشر غير حاد ..

قلت بصوت عال :

- « مساء الخير يا عمو .. هل تريدني شيئاً ؟ .. »

لم ترد .. أبرزت رأسي من الممر وصحت :

« مساء الخيب »

هنا فوجئت بأن الصلاة خالية .. لا يوجد فيها مخلوق . فقط المصباح (النيون) مضاء ، وعلى المنضدة كانت الجريدة وبقايا نسيج صوفى مع إبر الحياكة . بقايا سهرة كانت هنا ...

بالفعل لم تكن عمى فى الصلاة . كانت فى غرفة نومها .. ومن الواضح أنها فيها منذ زمن !

أبى أيضاً دخل غرفته ونام منذ زمن .

إذن .. ما مصدر هذا الظل الذى رأيته ؟!

شعرت بالشعر ينتصب على ساعدى .. بالفعل نحن موشكون على الجنون . الظلال يمكن أن تسبب جنونك فعلاً ، وقد قرأت ذات مرة قصة اسمها (الغرفة الحمراء) لكتاب لا أفكر اسمه^(*) ، تحكى عن بطل القصة الذى قرر أن يبيت فى غرفة مسكونة ، مات فيها كثيرون من قبل .. وأشعل عشرات الشموع كي تنير كل ركن من الغرفة . كما يجن كلما تطفأت شمعة وزحف الظلام على ركن من أركان الغرفة .. ظل يصرخ ويصرخ حتى غلب عن الوعى . وفى الصباح أعلن أن الغرفة مسكونة فعلاً .. مسكونة بالخوف .. مسكونة بالخيالات والذعر ...

(*) هـ . ج . ويلز .

هكذا أغلقت الأنوار وبخلت غرفتى .. وأعتقد أنني سهرت أكثر من اللازم ، أقرأ .. فقط كي لا اضطر إلى غلق النور مبكراً ! على أنني صحت فى الصباح لأجد أن أبى قد لحق بأمى ...

- 8 -

عندما انتهت الأيام التالية ، بدا واضحا أن (منى) لن تدخل الامتحان هذا العام (وكذلك أنا) ، وأن عمى ستقيم معنا للأبد ..
لقد توغى أبى أثناء النوم ، فى ظروف لا تختلف كثيرا عن وفاة أمى ...

لقد صرنا يتيمين بالمعنى الحرفى للكلمة ، ولفترة لم يكن البيت يخلو من الأقارب .. بعضهم رأيناه للمرة الأولى . مثلاً تكتشف فجأة أن لك أقارب فى السنبلولين ، وأن فرغا من الأسرة أقام فى الإسكندرية منذ زمن ... إلخ .. هناك عم (بدوى) الذى يتحدث فى حماس ويتناثر لعبه فى وجهك ، وهو يؤكد أنه ابن عم المرحوم لكنه بمثابة أخيه .

بعد قليل يعود كل واحد لحياته ويخلو البيت ، وأبرك المسئولية الرهيبة الملقاة على عاتقى ، وأحمد الله على أنه ليست لى ثلاث أو أربع أخوات ..

من الغريب أن هذه اللحظات لم تكن بالقسوة التى زارت أسوأ كوابيسى من قبل . أعنى أن ما عشته هو أسوأ شيء فى العالم على قدر علمى ، لكننى تحملته ، بينما لم أتحمل مثلاً كلمة غليظة قالها لى معلم أو صديق ..

قال لى د . (رفعت) :

- « هذا طبيعى .. المصيبة الكبيرة تأتى بصبر كبير معها .. عرفت فتيات تبكى الواحدة منهن عدة أيام لأن والدها وجه لها كلمة عنيفة ، بينما الفتاة ذاتها لم تهتز لها عضلة واحدة عندما عرفت أنها مصابة بسرطان الدم .. »

- « تريد القول بأننا ندخر الدموع للتوافة ؟ .. »

- « لا أعنى هذا ولو عنيتك لكنت مجنوناً . أعنى أن اللوعة والهستيريا والصراخ تتعلق بأمور لا تستحق غالباً .. يعرف الجراحون أن مريض الانسداد المعوى أو تهتك الطحال الذى يشكو ألماً مروعاً حقيقياً يظل ساكناً ينظر إليك ويفضل عدم الكلام كى لا يحرك جدار بطنه ، بينما الصراخ وعض الوسائد والركل والتلوى قد يكون معناها أن الأم فيه قدر لا بأس به من الهستيريا .. »

كما هو واضح ، صار د . (رفعت) يزورنا كثيراً جداً ..

هو رجل غير ودود .. يمقت الاجتماعيات حقاً ؛ لهذا أعرف التضحية التى اضطر إلى أن يقدمها كى يخفف عنا ..

كان يأتى يومياً تقريباً بعد استيقاظه من نوم العصر ، وكان أحياناً يجلب لنا بعض المأكولات ويزعم أنه جاء ليشرب القهوة عندنا لأن نوع البن الخاص بنا يروق له . طبعا هذا كان

بضايقتني ؛ فلسنا في ضائقة مالية ، ثم قررت أن أسمح له بعمل ما يريد ؛ لأنني خمنت أن العجوز يشعر بأننا ولداه ..

أعتقد أننا كنا نشكل عقدة نذب معينة على كاهله ، ولعله كان يشعر طوال الوقت بأن عليه أن يكون حنوناً ، وهذا بالنسبة إليه مستحيل .. رجل طيب هو .. هذا واضح .. برغم عصبية الشديدة ، وسرعة مله ، وشكله الغريب الذي يخيف الأطفال ..

كانت (منى) جالسة في ركن قاعة الجلوس تنظر إلى الأرض كعادتها .. إن عقدة النذب تجاه أبي لا تفارقها ، و(رفعت) ينكرها بهذا بقوة ..

كانت تمسك في يدها مجموعة من الصور ، فسألها رفعت متلطفاً عن محتواها ..

لم ترد ، فقلت أنا :

- « إنها صور ذلك اليوم الكريه .. ثم للنسيم .. النزهة الخلوية التي قمنا بها في القطار . لم أحمض الفيلم إلا منذ أسبوع لأنني وجدته في الكاميرا .. »

بدا القلق على رفعت وقال :

- « جميل أن تحتفظ بها ، لكنني لا أجد تفقدها طوال الوقت صحيحاً .. ليس الآن .. »

ثم وضع قدح القهوة ، ومد يده يطلب الصور :

- « هل تسمح لي ؟ .. »

ناولته الصور ، فراح يتأملها حثراً فيما ينبغي أن يقول .. لو قل : إنها صور رائعة ، لانفجرنا باكين ، ولو قال : إنها رديئة ، فهو قليل الادب .. ولو ظل صامتاً فهو جاف

هكذا راح يتفحص الصور الشمسية وهو يصدر أصواتاً محليدة مثل :

- « تم تم .. تم تم .. م .. م .. تم تم .. »

ثم رأيته يتوقف أمام صورة من الصور .. يدقق فيها .. ثم يعيد النظر في باقي الصور ..

بدل عوينات القراءة وتأمل الصور ، وقال :

- « هت شء غريب .. هلا نظرت إلى هذه الصورة معي .. »

نظرت إلى الصورة . انكرها جيداً .. إنها تظهرنا نحن الأربعة ، وكنا قد طبننا من عبر سبيل أن يلتقطها لنا ونحن نقف حفاة الأقدام على العشب ومن خلفنا جدول صغير . كنا نضحك متظاهرين بالمرح . أما سبب ضحكى فهو تعليق قالته (منى) همساً عن أن الرجل سيقرب بالكاميرا ويتركنا واقفين كالبلهاء ..

قال (رفعت) وهو يدقق فى الصورة جيداً :

- « الأحق الذى للنقط للصورة النقطها عكس للشمس .. لهذا لا تظهر الوجوه جيداً ... لكن ظلكم يرتعى أمامكم بوضوح .. الآن قل لى يا بنى ، فأتا لم اعد أثق بعينى البتة .. هل حقاً لا يوجد أى ظل أمام والدتك رحمها الله ؟ .. »

* * *

- 9 -

كلما أعدنا فحص الصورة والصور التالية التى تكررت فيها ذات ظروف الإضاءة ، أدركنا أن كلام د . (رفعت) حقيقى .. لا يوجد ظل من أى نوع أمام والدتى ولا خلفها أيضاً ، فى الصور التى كانت الشمس أمامها ومائلة ...

غطيت عيني فى صبر وقلت :

- « د . (رفعت) .. منذ بدأت هذه القصة وأنا اسمع كلاماً غريباً عن الظلال .. أبى يرى ظلالاً .. (منى) تتحدث عن ظل لا يشبهها .. أنا أرى ظل عمى من دون أن تكون عمى هناك .. والآن تأتى أنت لتقول لى إنه لا يوجد ظل لأمى .. إن الموضوع قد فاق المعقول ، ولا أرى كيف يمكن أن يفيدنا هذا .. »

قالت منى فى رفق :

- « صبراً يا رامى .. لم يقل د . (رفعت) إلا ما رآه .. فهل كنت تطلبه بأن يظل صامتاً ؟ .. »

- « نعم .. إن ملاحظة ظلال أمى ليست طريقة ممتازة لتقديم العزاء لنا .. »

هنا نزع د (رفعت) نظارته وصوب نحوى عينيّن متعبتين مرهقين ، نفاذتين برغم هذا ، وقال :

- « ربما كن علىّ أن أنهض غاضباً ، لكنى لن أفعل دعنى أتكلم بصراحة . لقد توفى والداك بطريقة غير مفهومة فى فترة قصيرة جداً . وعلىّنا أن نفهم السبب يجب أن نبحث عن كل شىء ، وإلا فمن يضمن لى ألا يتكرر الأمر قريباً جداً ؟! »

ارتجفت للفكرة ، فقال وهو يرفع قدح القهوة لشفتيه من جديد :

- « لو كنت تعتقد أن هذه مصادفة فانت أحقّ الأمر تجاوز المصادفة منذ زمن .. »

قلت متحفظاً :

- « كم من مرة سمعنا فيها عن رجل توفى بعد موت زوجته مباشرة .. عن زوجة مرضت وماتت بعد وفاة ابنها .. دعك من أن أبى كان يعانى دسنة من الأم ارض .. الوفاة هنا مفهومة ومبررة ، ما لم تكن تتهمنى بالقتل طيف .. »

قال د . رفعت فى عصبية :

- « من تحدث عن مصادفات الموت هنا يا بنى ؟ .. أنا أتحدث عن مصادفات كل هذا الكلام عن الطلّ . أنت تعرف ذلك النحات (عزت) الذى يسكن فى الشقة المقابلة لى أنا أمضى

الليل معه غالباً عندما لا أجد شيئاً أفعله ، وعندما لا يكون فى الإسكندرية .. لقد تكلم عن ظلال غريبة الأطوار فى مرسومه .. يقسم إنها تتحرك وإن لها سلوكاً غامضاً .. »

ثم اتسعت عيناه أكثر وقال :

- « بواب البناية .. إنه نتم أغلب الوقت ، ولا يلاحظ أى شىء على الإطلاق ، فنو أن الجيش البروسى دخل البناية فلن يلاحظ ... لكنه مصر على أنه رأى ظل إنسان يقف فى بئر السلم كأنه ينتظر . وقد ذهب ليتبين من هو فوجد أنه لا يوجد ظل ولا يوجد إنسان .. قص علىّ هذه القصة منذ يومين وجعلنى أفكر ملياً .. لقد بدأت أعتقد أن أبك لم يكن يتخيل للظلال التى يراها . هذا الرجل قد رأى ظلال الموت تزحف نحوه ببطء . تتربص به .. فلا شك عندى فى أنه توفى بنوبة قلبية .. صحا من نومه ليجد نفسه وحيداً وثمة ظل يزحف علىّ للجدار المقابل له . نظر إلى باب الغرفة مصدر الضوء الوحيد فلم ير أحداً .. هنا .. هنا بدأ قلبه يخفق بسرعة غير عادية الضربات غير منتظمة .. إل ... »

كان يتحدث فى حماسة وتفعل وقد احتقن وجهه ، وفجأة رأيته يتحسس صدره ويرتمى بظهره على الأريكة .. والذعر فى عينيه

الأحمق ١. لقد أجاد تمثيل النوبات القلبية لدرجة أنه أصيب
بواحدة ..

صاحت منى :

« افعل شيئاً .. إنه سيموت ١. الكل يموت فى هذا البيت
اللعين ! .. »

راح يلهث طلباً للهواء ، فنظرت إليه فاتحاً يدي فى غباء ..
ماذا أفعل ؟!

راح يسعل بلا توقف ، ومد يده إلى جيبه فأخرج زجاجة من
الأقراص ، لكنه طبخاً عاجز عن فتحها .. كل هذه الأكوية للعين
يتم تثبيت غطاؤها بحيث تحتاج إلى بلدوزر لفتحها ..

هكذا تناولتها منه وفتحها ودسست فى يده قرصين . وضع
أحدهما تحت لسانه وارتمى للخلف وقد احتشد العرق على جبينه .

مرت لحظات خيل لى فيها أنه مات فعلاً .. وفجأة فتح عينه
وواصل الكلام كأنه لم يحدث شيء :

« هل فهمت ؟ .. لقد قتل الذعر أباك .. وعلمنا أن نعرف ما
الذى أصابه بهذا الذعر .. »

قالت منى وهى تتناول كوب الماء المثلج :

« فى الوقت الحالى هناك شخص آخر سيموت ذعراً .. »

قال فى شيء من الفخر :

« النوبات القلبية أسلوب حياة بالنسبة لى ، حتى إننى لا أفهم
شعور الناس الذين لا يصابون بنوبات قلبية .. والآن عدى سؤال
لا أتوقع إجابة عنه .. هل فقد أبوك ظله فى الأيام الأخيرة ؟ »

قالت منى فى حزم :

« لا ! »

« متأكدة ؟ »

« نعم .. كان يمر أمام غرفتى ليلة الوفاة ، ورأيت ظله
بوضوح على الجدار .. »

قلت أنا فى عصبية :

« ألاحظ أنك تخلط ياد . رفعت بين اختفاء الظلال ،
والظلال الغريبة التى تجول وتثير الرعب .. »

قال فى شيء من التوتر :

« إن لدى نظرية ، لكنى لا أستطيع شرحها ؛ لأنها مخبولة
بحق .. والآن يا بنى هل فهمت ؟ »

قلت عاجزاً عن التفكير بشكل صحيح :

« وما المطلوب متى بالضبط ؟ »

« لا شيء !.. فقط أبق عينيك مفتوحتين لا تنق بالظلال
أكثر من اللازم . عليك أن تعرف أنك لا تعيش في ذات البيت
الذي تعرفه .. بل تعيش في »

وجفف عرق جبهته وغمغم بلهجة جمعت الدم في عروقه :

« بيت الظلال الحائرة !.. »

الجزء الثاني

عندما فقدت موهبتى

يحكيه هانى فهمى

- 1 -

منذ الطفولة ارتبطت حياتي بالظلال بشكل غير معقول ..

كنت أنظر دائماً إلى الجدران .. أتأمل ما يرسمه الناس عليها بظلالهم ، من لوحات رائعة تتغير كل لحظة ، ولا فضل لهم فيها .. أرى وجوههم وقد ارتسمت عليها بطريقة السيلويت silhouette الشهيرة .. عندها كنت أراهم أجمل . قليل من يعرف أن طريقة السيلويت مشتقة من اسم (سلويت) وزير مالية فرنسا الذي هاله ما ينفقه الناس من مال للحصول على لوحات تمثلهم بريشة كبار الرسامين .. هكذا طلب منهم أن يستخدموا هذه الطريقة لأنها أقل تكلفة .. الواقع أنها أجمل كذلك ..

كنت أتأمل الظلال وأقول لنفسى : هذه الشعرة هنا ، وذلك اللغد هناك .. هذا الأنف المعقوف هنا ، وتلك الذقن هناك ...

الظلال 1.. كلمنى أنا عن الظلال ..

عندما يقترب الغروب ويستطيل ظل كل إنسان ليتخذ شكلاً سريالياً غريباً ممتداً نحو الشرق .. عندها يتحول العالم إلى أرض يسكنها العمالق الذين يبلغ طول الواحد منهم طول منننة ..

ثم الليل !.. مصباح فى نهاية الشارع يبعث ضوءه الشاحب .. ويمشى الناس فيمتد ظلهم نحوك مريفاً طويلاً مخيفاً ، كأنه موشك على تمزيقك ..

الظلال 1.. حدثنى أنا عن الظلال ..

بها الحلم الذى منحته الله لنا .. قوتين الفيزياء عندما تقرر أن تبهرك وتريك أنها جميلة مثل باقى القواتين .. ربما أكثر فتنة ...

لا أعرف متى بدأت أصنع ظلالى الخاصة ، وقبل أن أسمع عن فن اسمه (خيال الظل) كنت قد صنعت عشرات الأشكال بأناملى ..

جمهورى الوحيد كان إخوتى الصغار ، عندما كنت أعلق ملاءة على فتحة باب به فرجة تسمح لى بأن أقف فيها ومعى مصباح ساطع ... أحرك أناملى فترى على الملاءة البيضاء كلنا ينبس لواقطة مذعورة ..

وعندما دخلت الكلية لم أرغب فى أية كلية من تلك التى يرغبون فيها . أردت أن أكون قريباً من عالم الظلال .. هكذا درست فى معهد السينما .. لكنى لم أعمل قط ..

تخرجت فى المعهد ، ومعى شهادتى ، ومعى قلب (ملالين) للفتنة زميلتى هناك . لكن كان بون هاتل يفصل بينى والزواج منها .. كنت بحاجة إلى وظيفة ثابتة ، وإلى دفعة مالية أولى ..

كان معي صديق مخلص يدعى (سمير) . وقد كان حالمًا مثلي ،
يصبو إلى أفق لا نراه . لهذا قررنا أن نحقق حلمنا بأي شكل ..

استطعت أن أعمل في وزارة الثقافة . وقد وجدت نفسي في
مكتب به موظفون يأكلون الفول بالزيت الحار ويحتفظ كل منهم
بليمونة في جيب بذلته ، لذا صمتت على أن أفر من هناك
واستطعت بجهد جهيد أن أنشئ مسرحًا صغيرًا لخيال الظل يتبع
وزارة الثقافة ماليًا ، حيث بدأت بعض العروض الناجحة ثم
تعاقد معي أحد مخرجي برامج الأطفال التلفزيونية على تقديم
فقرة ثابتة يوميًا .

هكذا وجدت نفسي بحق . لم أجن مالاً ، لكنني وجدت النافذة
التي أنفَس منها . ومن بين أناملِي خرجت حكايات كاملة .
الشاطر حسن وست الحسن والجمال . التين النائم . الأسد
و (أندروكليس) ... إلخ ...

اعتقد أنني كنت بارعًا بحق . وكنت ، باستعمال أناملِي وبعض
إضافات بسيطة جدًا مثل منديل أو قطعة معدنية لها شكل التاج .
قادرًا على أن أرسم ظل أية شخصية في العالم ..

لقد اشتهرت ، والتقت بي أكثر من مذيعة تلفزيونية . كما جاء
كثيرون ليروا ما أقدمه ..

وجاء اليوم الذي صرت فيه قادرًا على الزواج من حبيبة قلبي .
لن نكون أثرياء ، لكننا قادران على أن نخدع أنفسنا . ما زلنا
صغرى السن ، والغد يحمل الكثير ..

هكذا تمت الخطبة ..

من ضمن من عرفت في الوسط الفني . كان ذلك الرجل التحيل
داكن اللون جدًا ، والذي تشعر بأنه مريض في المراحل النهائية
لمرض عضال ..

كان نحاسًا قهريًا يدعى (عزت) . وهو مصر على أن يعتبر
نفسه سكندريًا .. قال لي إنني بارع حقًا وإنه يتأمل أناملِي
بلا توقف ليفهم كيف استطعت خلق هذه العوالم الساحرة ..

كانت ملامحه مميزة جدًا ، لذا ابتسمت وأضأت مصباحًا
ووضعت أناملِي أمامه ، وعلى الفور ارتسمت على الجدار صورة
كاريكاتورية له بأنفه الكبير . صرخ اتبهارا ، وتعني لو أنه
استطاع أن يأخذ هذا الظل معه ..

- « أتعني لو كنت فنان سلويت لأبقى هذه الظلال على الورق
للأبد .. »

كان عزت رجلاً بسيطاً طيب القلب .. لا أعرف مرضه ولم أسأل ، لكن أهميته بالنسبة لى تكمن فى أنه من قدمنى لرفعت إسماعيل لو العكس ...

يعود سبب هذا إلى ذلك اليوم الذى دخلت فيه الاستوديو وبدأت أعد العدة للعرض الذى سأقدمه فى برنامج الأطفال .. تأكدت من سلامة الكشاف ، بينما المذيعة تقرأ خطابات الأطفال التى وصلتها ..

تأكدت من أن الملاءة نظيفة ومشدودة ، ثم وضعت يدى أمام المصباح ، فى الوقت الذى راح أحد المصورين يضبط عدسة الكاميرا على الجهة الأخرى التى سيظهر عليها الظل ...

هنا شعرت بدهشة ..

لا يوجد شيء ..

يدائى لا تلقيان ظلاً على الملاءة !

- 2 -

جريت مرة ومرتين بلا جدوى ..

ماذا حدث وكيف ؟ ..

شعرت بأننى موشك على الموت ، وقد دوى صوت المصور يسألنى عما هناك . لماذا لا أعرض يدى على الملاءة كما طلب ؟ .. العرق يتصبب غزيراً من جبهتى ، ولكنى لم أستطع أن أفسر .. أصابنى الذعر بشدة ، ونهضت مسرعاً خارجاً من الاستوديو وسط نظراتهم المندهشة .. لحق بهى أحدهم على الباب واعتكفنى للخارج بعيداً عن الضوضاء ، وسألنى :

- « ما بك ؟ .. »

قلت وأنا أجف عرقى :

- « لا أعرف .. لست على ما يرام .. لا أعتقد أننى قادر على أداء هذه الفقرة .. »

ورحت أجرى خارجاً من (ماسبيرو) والناس تنتظر إلى فى دهشة ..

كنت أجرى فى طريق الكورنيش .. شمس للعصر ساطعة ، لكنى لم أجسر لحظة واحدة على النظر إلى قدمي لاتبين ما إن كان لى ظل أم لا .

فى البيت أغلقت الباب على نفسى ..

أخرجت المصباح العملاق الذى أستعمله منذ صباى فى لبروفات .. أضلته وأخذت نفساً عميقاً . (هتى) يا صاحبي . هذه الأشياء لا تحدث .. اطمئن . أنت تخرف أو أنت مجنون لا يوجد حل آخر ..

ربما هو كابوس تصحو منه الآن ..

وضعت يدي بين المصباح والجدار .. وهذه المرة كنت أكثر هدوءاً ..

بالفعل لا يوجد ظل .. لا شك فى هذا ..

يمكن بلا فخر أن أقول : إننى (الرجل الذى فقد ظله) ولكن كيف ؟!

نشأعت من الأمر .. ربما كانت هذه من علامات الشفافية الزائدة ؟ .. ربما أنا أقترب من الموت ؟ . يقولون : إن الذين يدنون من الموت يصيرون شفافين أكثر من اللآلئ . ويرون ما لا يراه الآخرون . ربما أنا صرت شفافاً بالمعنى الحرفى للكلمة ؟

أطفأت معظم الاضواء بحيث لا أرى ظلالاً ، ثم جلست ألتهم غدائي شارداً الذهن لا أعى ما أكله .

هل هو مرض ؟ . لو كان مرضاً فلم أسمع عنه من قبل ..

المشكلة هى أن علاقتى بالظل قوية .. هو حياتى ومصدر رزقى . فلا شك أن غيرى من الناس كانوا يحتاجون إلى عدة أيام حتى يلاحظوا ..

ظلى الحبيب .. غذى ..

نظرت إلى ساعتى . إن موعدى مع (مادلين) قد حان .. إننى دعوتها إلى السينما ..

مزاجى متعكر ولا يسمح لى ، لكنى مضطر . ربما كنت بحاجة إلى التغيير . أنا مرهق وسوف تنقذنى السينما .. سوف أصحو لأجد ألتى كنت أهلوس ..

هكذا هرعت أبذل ثيابى ..

قرعت باب (مادلين) ففتحت لى أمها الباب ..

أمها سيدة مصرية عادية جداً ، تؤمن بأن الخطية طالت وأنه لم يعد مستحباً أن يراى الناس صاعداً نازلاً من الدار ..

- « ألن تنشط يا (هانى) وتأتى بالشقة ؟ .. »

كنت عصبى المزاج ، لكنى تكلفت اللطف :

- « بالتأكد .. هناك شقة مناسبة سوف أراها الأسبوع القادم ..

أعتقد أنها هي ... »

- « فى كل أسبوع ترى شقة مناسبة .. هذا يتكرر منذ علم .. »

- « الشقى التى تروق لى لا أقدر على دفع ثمنها ، والشقى

الذى أقدر على دفع ثمنها لا تروق لى .. »

- « أنت صرت ناجحاً وتحقق كسباً لا بأس به .. لم يعد للانتظار

مهر .. »

تذكرت الآن أتى على ما يبدو فقدت طريقة كسب رزقى .. أنا

كالجراح الشهير الذى أصابه العمى ، أو بترت يده اليمنى ..

لو دام هذا الكابوس فلا أمل فى الزواج ..

عطرة كالزهرة ، أنيقة كقطة شيرازية ، ظهرت (مادلين) وقد

تأهبت للخروج معى . حبيت حمايتى القلعة بسرعة وعصبية ؛

حتى لا يطول الكلام .. وسرعان ما كنا فى الشارع ..

سينما (ليانا) تقع على بعد نصف محطة من بيتها ؛ لذا
فضلنا المشى ..

كان الفيلم قد بدأ فعلاً ...

ونظر إلينا (البلاسير) نظرة تجمع بين السخرية والسؤم

والتهذيب .. يتوقع طبعاً أننا لم نأت للسينما كي نشاهد الفيلم ..

معظم هؤلاء القوم يملكون طباع القوادين ، فهم يبسرون الخلوة

لمن يرغب ، مقابل مال .. أنا لم أطلب ، ولست من هذا الطراز ،

لكن عبارة (أى خدمة) مع الابتسامة الخبيثة تحمل معنى الإهانة ..

الويل لك لو لم تدفع ...

دسست فى يده جنيهاً فافقأنا إلى خلفية الصلاة .. تحت كابينة

العرض بالضبط .. موضع غريب جداً ، اضطررنا معه إلى

المرور أمام شعاع آلة العرض للقادم من تلك النافذة فى الكابينة ،

برغم أن الفتى طلب منا أن ننحنى . لكن أى اتحناء ؟! .. كان

عليه أن يطلبنا بالزحف ..

ونظرت بسرعة بطرف عيني إلى الشاشة .. للحظة ملاً سلويت

(مادلين) الشاشة ، فتعالى الصغير مع السباب من الصلاة . ثم

لاشئ ... لم يكن هناك ظلال ! .. ظل واحد فقط .. لحسن الحظ

أنها لم تلاحظ هذا ...

جلسنا .. بينما أطفأ (البلاسير) كشافه واستدار مبتعداً ..

فعلاً مكان عجيب .. يصلح للذبح أكثر منه صالحاً للقرل .. لن
أدهش لو التف ثعبان (بوا عاصرة) على قدمي ، وابتلعني الآن ..

شعاع العرض يتحرك فوق رأسي ، ونحن جلسنا نلهث ونحاول
استيعاب المكان

وعلى الشاشة (سعاد حسنى) تغنى (يا ولد يا ثقيل) الأغنية
التي اجتاحت المجتمع المصرى مؤخراً . قالت لى (مادلين) :

- « هناك ممثل شاب جديد قادم من أمريكا .. اسمه .. اسمه
(حسين فهمى) صديقتى حكين لى عنه يقلن إنه وسيم
لدرجة لا تصدق .. »

- « لا أعتقد أن هناك من هو أكثر وسامة منى .. »

فجأة هتكت (مادلين) :

- « أين هذا ؟ .. »

لم أفهم . لكن سمعت الصغير مع الشنائم كل الصلاة
تصرخ وتصفى وتضرب الأرض بأقدامها .

رفعت عيني نحو الشاشة فرأيت أن هناك شخصاً أحرق سمجاً
يقف أمام الشعاع ، حتى غطى الكادر كله تقريباً . أنا لا أرى
الشخص ، لكن أرى ظله ..

لكن . أين هو فعلاً ؟!.. أنا أرى الشعاع بوضوح ، منذ
خروجه حتى سقوطه على الشاشة ..

لا يوجد أحد !

ونظرت إلى الظل المرسم على الشاشة ، فعرفت على الفور ، وأنا
خبير الظلال ، ظل من هو . هذا الشعر الثائر ، والعوينات ، وياقة
السترة المرفوعة لتغطي قذائه كأنها عباءة مصاص دماء ...

هذا الظل هو .. ببساطة شديدة - ظلى أنا !

- 3 -

دعوت الله أن يتحرك هذا الشيء بسرعة ..

للصلاة هتجة ثائرة ، ولكل يضرب الأرض بقدميه ، ومن الواضح أنهم سيمزقون هذا الظل لو رأوه .. لكل ينظر إلى الخنف فلا يرى شيئاً .. شتائم من طراز خاص لا يخرج للسطح إلا في مناسبات نادرة ..

والظل منصراً على استفزاز الجميع .. واقف بلا حراك ويداه في جيبه ..

همست (ماللين) :

- « من هذا ؟ .. وأين يقف بالضبط ؟ .. »

- « لا أعرف .. ربما هو داخل كابينة العرض ... »

وهو كلام مخيف طبعاً ؛ لأن العسة تبرز خارج شبك العرض .. أى إنها لا تترك مسافة تسمح باتدساس شخص ..

مرت لحظات ثقيلة كأنها الدهر ، ثم مر ذلك الثقيل مبتعداً ...

تنهدت في ارتياح كأن الذنب نتهى ..

ثم تذكرت في هلع أنني رأيت ظلي على الشاشة ، لكنه لم يكن ظلي .. ليست له علاقة بي .. إنه شخصية منفصلة تماماً ...

ما معنى هذا ؟ .. وكيف حدث ؟

لم أصرح (ماللين) بشيء من هذا .. لكننا استكملنا الفيلم وأنا لا أطيق لحظة ولحده منه .. أريد العودة لأدري لأفكر على مهل ...

ولما انتهى الفيلم شعرت بأننى شخت بضعة أعوام ..

عند باب بيتها طلبت منى للصعود ، فاعتذرت لأن الوقت تأخر .. سألتنى :

- « لماذا لم تظهر فى برنامج الأطفال ظهراً ؟ .. نسيت أن أسألك ؟ .. »

- « كنت متوعداً .. جميل أنك لاحظت .. »

- « أنا لا أفوت حلقة ولحده .. »

وتركتنى داخلية البناية العتيقة ، ووجدت نفسى وحدى من جديد ..

إنها للعاشرة مساء .. لن أقدر على النوم أو الأكل ما لم أعرف ما حل بى . حالتى النفسية لا تسمح سوى بالوثب من الشرفة لو تركت وحدى ...

هكذا اتجهت إلى هاتف عمومى ، وطلبت رقم (عزت) .. ذلك للنحات المريض الذى تعرفت به منذ عام .. كان قد عاد من

الخارج ، بعد زيارة استغرقت شهراً للولايات المتحدة ، وقد جنب
لى هدية تثير الغيظ .. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال ..

- « كيف حالك يا (عزت) ؟ .. أين تسكن ؟ .. »

- « فى الدقى .. لا يعنى هذا أننى لا أرحب بزيارتك ، ولكن
لماذا تسأل ؟ .. »

- « ما اسم ذلك الطبيب الذى حكيت لى عنه من قبل ؟ .. أطلع ،
نحيل ، أعزب ، غريب الأطوار ، يهتم بالماورائيات .. »

- « رفعت إسماعيل .. لماذا تسأل ؟ .. »

- « هذه قصة طويلة .. فقط أريد أن ترتب لى لقاء معه ..
أعتقد أنه فى داره الآن . إنه غريب الأطوار ، يكره البشر ويحب
الليل .. فلا شك أنه فى البيت ! .. »

- « غريب هذا .. من الصعب أن ... »

هنا فقت أعصابى ، فصحت بصوت جعل كل الشارع ينظر إلى :

- « أريد أن أقبله الآن ، وإلا فقلت نفسى ، وكتبت أنك المسئول
مسئولية كاملة عن التحارى ! .. »

بدا على صوته الارتباك .. إن الصراخ فى الوجه من أعلى
درجات التبسط ورفع الكلفة ، وعلاقتنا لا تسمح بالتبسط .. ليس
إلى هذا الحد ..

قال بصوت مبجوح فلتز قليلاً :

- « نعم .. أعتقد أنه فى داره .. كم من الوقت يلزمك لتصلنى ؟

إن العولن هو ... »

دونت العنوان فى ورقة ، وأسرعت أبحت عن سيارة أجرة ...

عندما وصلت تلك البناية فى الحى الهادئ بالدقى ، قابلنى
عزت على الباب ، فقال لى وهو ينظر حوله فى توتر :

- « لاحظ أنه غريب الأطوار نوعاً . لا تبد دهشة .. »

- « لا يمكن أن يكون هناك من هو أغرب منى .. »

وصعدت على الدرج مع عزت .. هناك بلغنا ذلك الطابق الذى
يعيش فيه . فتجه إلى باب شقة ونق الجرس ، فانفتح الباب ، لأجد
أمامى رجلاً أصلع شديد النحول ، لا يضع كسرولة على رأسه ..

- « تفضل .. لقد أعطانى (عزت) فكرة عنك .. »

ونظرت إلى عزت فى إشارة جانبية ، ففهم على الفور .. طلب
منا الإثنين وعاد لشقته ، وإن وعته بأن أمر عليه . لا أحب زيارة
العزاب على كل حال ، لكنى مضطر .. دائماً تكون شققهم قذرة
متسخة ، ولا يقدمون شيئاً ذا بال .. فإذا أكلت عندهم فهى
شطائر الطعمية إياها .. وإذا شربت فهو الشاي كريبه المذاق ..

هكذا جلست ..

وهكذا رحت أحكى لرفعت إسماعيل قصتى مع الظلال ...
أو قصتى مع الظلال التى لم تعد هنالك . حكيت له بالتفصيل
العمل ، حتى موضوع السينما والشعاع و (يا واد يا ثقيل) ..

ظل يصغى فى اهتمام ، ثم قال لى :

« الغريب أن هذه ليست المرة الأولى .. وبها لصدفه عجيبة
حقاً .. »

ثم دخل غرفة ما ، وعاد بكشاف وضعه أمامى ، وطلب منى أن
أقف بينه والجدار .. نهضت وقطعت ذلك شاعراً بذلك الشعور
الكريه الذى تشعر به عندما يرغبك الطبيب على التعرّى لينكشف
مرضك واضحاً للمرة الأولى .. قبل هذا كنت أقتنع نفسى أن الأمر
ليس خطيراً ..

الآن أنت ترى الحجم الكامل لمشكلتك ..

لا يمكن أن تقنع نفسك بأنك واهم ..

الأسوأ أن ترى عيني الطبيب المذعورتين .. هكذا تدرك أنك

انتهيت !

- 4 -

قال لى رفعت وهو يجلس على تلك الأريكة :

- « عامة لم ألق حالة كهذه من قبل .. خبراتى متشعبة بما
لا يمكن أن تتصوره ، لكن هذه الظاهرة عجيبة .. هناك قصص
فى الأدب العالمى عن أشخاص فقدوا ظلهم .. هناك قصة شهيرة
جداً لها تم كريبستيان أندرسن عن رجل تخلى عنه ظله ، وصار
الظل رجل أعمال ناجحاً .. لكنه بعد أعوام عديدة شعر بالحزن
لأنه ليس له ظل !.. هكذا حاول أن يجرى صفقة مع الرجل بأن
يصير هو ظله .. ظل الظل !.. إنها قصة عجيبة (*) .. »

قلت فى حزن :

- « أعرفها .. لا تنس أنى أعمل فى برامج الأطفال ، وأقرأ
الكثير من القصص العالمية .. »

- « ليست قصة أطفال أبداً .. إنها مخيفة كابوسية .. هناك
فيلم ألمانى شهير يعود لعصر السينما الصامتة .. هذا رجل تخلى
عن ظله مقابل أن يفوز بحب فتاة معينة .. النتيجة أنه فاز بحبها ..
لكنه فقداه بسرعة ؛ لأنها أصيبت بالذعر عندما مشى جواره فى
الشارع ووجدت أنه من دون ظل .. اعتقدت أنه الشيطان ذاته ،
وفرت منه . اسم هذا الفيلم (الظل المفقود) ... »

قلت في غيظ :

- « د . رفعت .. أنا سعيد جداً بهذه الجلسة التثقيفية ، لكنى لم أت هنا كي أسمع محاضرة عن الظل في الأدب العالمى . هل يمكنك أن تساعدنى ؟ .. »

قال على الفور :

- « بالطبع لا .. فقط يمكننى أن أقول لك . إنك لست الوحيد .. هناك سيده أعرفها فقدت ظلها . المشكلة أنه تحرر وبدأ يقتل على ما اعتقد .. »

- « هذا جنون ! .. »

- « والظلال المغفورة ليست جنونا ؟! .. »

ثم هدأ قليلاً وعاد يسألنى :

- « هل يمكنك أن تؤكد أنه لا علاقة لك بالسحر الأسود ، أو شيء لا أعرفه مثل ارتداد المقابر .. ربما سرقة قطعة أثرية فرعونية ما ؟ .. »

- « بالطبع لا . ما أعرفه هو لئنى فقدت عملى على الأرجح .. لو فقد أى إنسان آخر ظله فلا مشكلة بالنسبة إليه .. مشكلة جمالية بسيطة . بينما أنا أفقد مصدر رزقى الوحيد .. لماذا أنا بالذات ؟! .. »

- « مثمما يفقد الموسيقى سماعه أو الجراح يده . هذه أشياء تحدث برغم قسوتها . ولكن أظن أن بوسعك تطوير أدائك .. ماذا عن استعمال دُمى الظل على طريقة (صقلية) ؟ »
المهم أننى عرفت بوضوح أنه ليس لديه ما يقدمه لى ..

عندما غدرت داره وجدت أننى أحرق عندما أبدت كل هذه الهستيريا مع (عزت) . كان رفعت يملك عصا سحرية يعيد إلى ظلى بها ..

هو فقط محرق فى نقطة واحدة ، هى أن على أن أستعين بالنعصى والدُمى . يجب أن أتأقنم مع فقدانى للظل .

أنا الآن فى دارى ، أكتب هذه الكلمات فى كراس مذكراتى .. لقد أعدت البحث عن ظلال قنم أجد .. لهذا تعمدت أن أخفض الإضاءة وأغلق أكثر الأنوار ، لأن هذه الأضواء الحارقة تبث فى نفسى الرعب ...

لن أنهزم . سوف أغير من طريقة أداتى .. وهكذا أستمر فى كسب رزقى إلى أن أقهر فعلاً ما حل بى ...

شربت كوباً من الشاي ، وجلست أقام صورة مائلين
الموضوعة على مكتبى .

رفيقة ، شغافة ، نبيلة .. لا يمكن أن أفقدها أبداً ..

لكن لو عرفت الحقيقة ، فهل تخاف منى كما حكى لى هذا
المدعو (رفعت) ؟

هل تعتبرنى ممسوساً أو الشيطان ذاته ؟

لن تلاحظ .. سوف تحتاج إلى وقت طويل جداً قبل أن تلاحظ ..
الناس لا تنظر إلى ظلها إلا مرة كل عام .

يا له من يوم طويل مرهق ! ..

لا أصدق أن موضوع اختفاء الظل هذا حدث ظهراً .. كئنه
حدث منذ قرون ..

السينما .. الظل أمام الشاشة .. رفعت إسماعيل .. كل هذا
كثير جداً بالنسبة ليوم واحد ..

أنا مرهق فعلاً ..

لكن

الأمر يتجاوز حد الإرهاق العادى ..

لنا بالفعل عجز عن النهوض ، وأشر كل وزن هذا القلم أظنان ..
هذا الثقل فى صدرى وخلف عظمة القص ... لو صدقت
ما أقروه لقلت إنه نوبة قلبية .. لكن هذا مستحيل فى سنى على
ما أعتقد .. أنا لم أدخل لغافة تبغ قط ..

لكن .. الإرهاق ..

أريد .. لن .. أغمض .. عيني .. وأستريح ..

شيء يخبرنى بأننى لو فعلت فلن أفتحهما ثانية .. يجب أن
أقاوم ..

لكنى بالفعل أرغب فى ذلك ..

أريده ..

أري

-1-

الناس يفقدون ظلالهم ..

ثمة أدلة تخبرني أن هذه الظلال لا تختفى لحسب ، بل هي
تجول وتثير الهلع في القلوب ..

عرفت نها وفاة (هاني) فنان الظلال هذا بعدها بيومين .. لقد
كان عندي وعاد لداره التي يعيش فيها وحده .. جلس بدون
تجربته تلك ، بما في ذلك اللقاء معي ، ويقول الطبيب الشرعي :
إنه أصيب بنوبة قلبية وهو جالس ...

طبعاً لم يصدق رجال الشرطة حرفاً من هذا الجنون الذي كتبه
في مذكراته ، لكنهم طلبوني ليسمعوا رأيي ، ما دام اسمي في
الأوراق ..

كانوا يريدون التأكد من نقطة واحدة ، هي كونه انتحار أم لا ..
قال العقيد الذي يحقق في القضية ، وهو يتصفح أوراق ملف
أمامه :

« الانتحار نوع من الجنون الوقتي .. وصاحبنا قد جن كما
هو واضح .. تصرفاته أدلى إلى الانتحار ، خاصة مع كتابة

الجزء الثالث

قوم الظلال

يحكيه رفعت إسماعيل

مذكرة ، وما إلى ذلك .. مشكلتنا كانت تبين وجود مادة سامة ما في غسيل المعدة .. لم يجد الطب الشرعى ما يدل على هذا ، لكنه وجد علامات احتشاء ممتد .. ما معنى احتشاء ؟ .. »

قلت فى كياسة :

« هذا هو ألحن ما يمكن أن تحدثه الذبحة الصدرية .. جزء كبير من عضلة القلب قد مات .. »

« وهذا يعنى أن الوفاة طبيعية .. »

هزرت رأسى ..

إن الموت المفاجئ ليس نادراً .. نحن نراه كثيراً جداً ، والشباب يموتون كثيراً هذه الأيام ، لكن ظروف الوفاة غريبة وتلقى علامات استفهام عديدة .. لماذا يموت المرء فى اليوم الذى يفقد ظله فيه ؟

قبل هذا ، هناك قصة تلك الأم التى فقدت ظلها يوم شم التسليم أو قبله ، ثم عادت للبيت لتموت بلا سبب واضح ...

بعد هذا مات الأب بنوبة قلبية ، لكنه لم يفقد ظله ..

بشيء من الخيال يمكن أن نقول : إن من يفقد ظله يفقد حياته .. كان شيئاً مهماً قد انتزع منه .. خلاصة وجوده ذاتها . ثم يجول

هذا الظل حراً ينشر الذعر .. البواب رأى هذه الظلال .. عزت رآها .. الفتاة منى رأتها .. الفتى رامى رأى طرفاً منها .. هانى رأى ظلاً يشبهه لكنه حر تماماً على شاشة السينما ... وهنا يمكن أن نفهم كيف يموت رجل يصحو من نومه ليجد ظلاً بلا صاحب جوار فراشه .. أنا شخصياً كنت سأفعل هذا ..

كل هذا غريب ..

لم أسمع عن شيء مماثل من قبل .. والأهم هو السؤال : لماذا الآن ؟ ... لماذا هذان ؟ .. الأم ولذان الظل ؟

ما الذى يجمع بينهما ؟

عدت لشقتى العامرة بى وحدى ، فى الثامنة مساء ، فدخلت المطبخ ووضعت على الموقد إناء به ماء . سوف أعد بعض المكرونة ، وهى وجبة ممتازة تصلح لتحل محل ثلاث وجبات .. لاحظتنى لن أكل شيئاً حتى هذا الموعد غداً . من الشلابة أخرجت شريحتين من اللحم المسلوق المجمد .. أنا أسلق اللحم على شكل شرائح وأجمده بهذه الصورة ، بحيث أضع شريحة أو اثنتين مع الوجبة التى أطهوها .. هذا يوفر الكثير من الوقت ..

تسألني عن كيفية الحصول على الخساء إذن .. وما شأني أنا بهذا الكلام للفرغ ؟ .. دع الخساء للمتفرقين ..

دخلت غرفتي ، فبدأت أنزع ثيابي وأنا أفكر في هذه القصة ..

هنا رأيت من يتحرك في المعمر خارج الغرفة !

توقفت عن الحركة ونظرت مدققاً .. بالفعل .. هناك ظل يمشي في المعمر .. معنى هذا أن صاحب الظل يقف على باب المطبخ الآن ؟

لص .. في هذا الوقت ؟! وماذا يريد ؟! وكيف دخل ؟!

لكنني متأكد من شيء واحد .. هناك شخص ما فعلاً ، لأنني لست من الهستيريين الذين يتخيلون أشياء ..

لحسن الحظ أن الهاتف جوار الفراش .. هكذا اتجهت نحوه بحذر ، وعيناي لا تفارقان الباب .. طلبت الشرطة ، وانتظرت دهرًا حتى رد الصوت الملول ..

قلت له همسمًا : سمعت صوتًا غريبًا ..

« أنا .. (رفعت إسماعيل) .. أعتقد أن هناك لصًا في بيتي ..

عنواني هو ... »

أخذ البيانات وواعد بأن يرسل لي من يتبين الأمر .. طبعًا سوف يستغرق الأمر ساعة ، وعندها سأتخلص مهمتهم في معرفة سبب الوفاة ...

وضعت السماعة وأطلت براسي في حذر من باب الغرفة ..

لا أحد ..

أرى المطبخ بوضوح وأعرف أنه لا أحد فيه .. يبدو أن المتسلل في غرفة المكتب الآن .. من المستحيل أن يقطع على الطريق إلى المطبخ إذن ..

هكذا جريت إلى المطبخ . لم يكن هناك صوت سوى الماء الذي يغلي بجنون داخل الإناء ... أمسكت بالإناء من المقبضين .. وانتظرت ..

لو أطل هذا الشخص على الآن فليسوف يكون أول شيء أفعله هو قذف محتويات الإناء من الماء الساخن في وجهه .. أذكر أنني فعلت هذا ذات مرة مع شبح عائد ، ويبدو أنها طريقة فعالة ..

ابتسمت لهول المفاجأة التي سيراها هذا القادم .. بل إن جزءًا ساديًا في ذاتي راح يتمنى أن يطل على الآن ، فهو انتقام جميل ، من الخسارة ألا يتم ...

هكذا وقفت في المطبخ .. يداي تمسكان بالإتاء ، ووجهي نحو الباب .. لن أنتظر كثيراً ...

سوف يقترب الآن ..

أتصور كيف يبدو بالجرح على خده ، والسوار حول معصمه ، وضخامته .. اسمه (زينهم) أو (سنقر) .. مسجل خطر بالتأكيد .. سطو مسلح أكثر من مرة .. لابد أنه يحمل مطواة .. لابد أن عينيه حمراوان وله سن ناقصة .. لابد أنه ...

إنه هنا !

أرى ظله يرسم أمامي جوار فرجة باب المطبخ ... ظل عملاق يرسم ظلي جواره صغيراً واهناً ...

معنى هذا أنه يقف خلفي ..!

ولكن كيف ؟! لا توجد مخالب في المطبخ ، ولا شرفة بتوارى فيها ويخرج منها .. من أين جاء ؟!

استدرت للخلف بسرعة ، وبلا تفكير قذفت الماء المغلي نحو مصدر الظل

بالتطبيع لم يكن هناك أحد !

- 2 -

أغرق الماء المغلي كل شيء .. وتصاعد البخار في كل صوب ..

بل إن بعضه تسرب إلى أصابع قدمي في الخفين .. فشبهت ..

مثل على الجدران وعلى الثلجة والمنضدة الصغيرة ..

لكن لم يكن (زينهم) هناك ..

لثقت بالإتاء على الأرض ؛ لأن الحرارة أحرقت أقدامي ،

واستكرت لأرى أين ذهب الظل ..

كان ما زال هناك واقفاً ..!

هو ليس ظلي .. إنه ظل شخص ضخم .. شخص ضخم جداً ،

لكن تبين ملامحه عسير لأنه أقرب إلى كتلة من الظلام .. يمكنني

بشيء من الخيال أن أقول إن عينيه حمراوان كجمرتين ..

لقد وجنوني إذن !

اتجهت إلى الباب وأنا أجر قدمي .. لكنه ظل واقفاً جواره ..

لا شك في الأمر .. هذا ظل حر .. ظل بلا صاحب .. ظل

يتحرك بإرادته الخاصة ..

شيء مرعب .. لكنه ليس بالغريب على .. قوم الظلال شأنهم معروف في الأساطير و... واهر (الفورتية Fortean) .. لكن ما لا أعرفه فعلاً هو الظلال التي تترك أصحابها ..

المشكلة الأخرى هي أن (الكينونة) أخبرتني بكارثة قادمة ، وأن سرب دررثها .. كل إنذار ترسله لي صادق تماماً لكنه غامض .. أن ترى حريقاً في بيت صاحبك فتصل به لتقول : « كن حذراً .. » ولا تقدم أية تفاصيل

الكوارث التي تنذرني بقدمها لا تمس شخصي غالباً ، بل تمس الجميع .. إنه رعب من الطراز الاجتياحي أو (رعب هرمجدون) كما يسمونه في الغرب . رعب يهدد الحياة ذاتها .. لكنني عاجز عن الاستيضاح منها ..

أعرف ما سوف يحدث ..

غالباً هذا الظل خرج للقتص ، أو إثارة ذعري حتى الموت .. ولكنني لن أترك له فرصة ..

هكذا اتجهت إلى الهاتف وبحثت في الدليل عن رقم معين ...

فرغ (عطية) الكهربائي من تركيب آخر مصباح (فلورسنت) ونزل عن السلم الخشبي وهو يضرب كفاً بكف ..

- « والله يا دكتور ما كنت أفعل هذا لواحد آخر .. لا يمكن أن تقتضي بتركيب كل هذه المصابيح في الحادية عشرة مساءً ، والأمر لا يتعلق بالطوارئ ... النهار له عينان .. » ثم نظر إلى ما قام به .. وقال في دهشة :

- « خمسة مصابيح فلورسنت في قاعة ضيقة كهذه !.. قلت : إنك تبالغ !.. »

لما أنا فبهتسمت ورحت أنظر إلى الفوضى التي سببها .. كل هذه الأسلاك والغبار الناجم عن استعمال المثقاب ، وقطع لاصق الكهرباء .. ثم رفعت يدي ورحت أفش عن ظل .. أي ظل على أي جدار .. لكن الإضاءة كانت ساطعة إلى درجة لا توصف وفي كل الاتجاهات .. لا يوجد ركن واحد يمكن أن يتوارى ... كأنني أقوم حفل زفاف في هذه القاعة ..

نقدت الرجل ماله شاكرًا .. فحمل سلمه واتجه للباب وهو يقول كلاماً لا أسمع طبعاً ..

سوف أبيت ليلتي في هذه القاعة ، حيث لا ظلال تتسلى على .. ربما أقيم هنا دوماً إلى أن أفهم ما يحدث هنا ..

عندما فتحت الباب وجدت رجال الشرطة !

« قيل لنا : إن هناك لصاً فى هذه البناية .. هل أنت د. (رفعت إسماعيل) ؟ .. »

نظرت إلى ساعتى .. توقعت هذا ..

سيكون تفسير الأمر عسيراً . أنا اتصلت يا سيدى لأن هناك ظلاً بلا صاحب فى شقتى ! .. لا يمكن أن أقول هذا . يجب أن أكذب .. أكذب كثيراً جداً ..

بعد انصراف الجميع ، جلست فى تلك القاعة ساطعة الإضاءة .. لقد نسيت كل شيء عن العشاء الذى أعدته ، لكنى كنت فخوراً بعقريتى .. ما امت عاجزاً عن فهم ما يحدث ، فلا أقض على الظلال ، إما عن طريق إضاءة ساطعة وإما عن طريق الظلام .. طبعاً الظلام لا ينفى وجود الظلال متوارية ، بينما الإضاءة الساطعة تبدها تماماً ..

لتكونن معيشتى أكثر الوقت فى هذه الغرفة ، وربما نومي كذلك ..

مر الوقت .. فتحت جهاز التلفزيون ورحت أتابع .. جلست .. اعتدلت .. نقلت ساقى .. نهضت .. جلست ...

بعد قليل فطنت إلى أننى أتوتر أكثر فأكثر .

هذه الإضاءة تحطم الأعصاب فعلاً ، دعك من أن الله خلق جهنماً للعصى كى ينام ليلاً .. كى يجد الضوء الخافت أو الظلام حوله ليلاً .. أية محاولة لخرق ناموس الطبيعة البيولوجية هذا لابد أن تقود إلى اضطراب نفسى .. ربما إلى الجنون ..

ليس بهذه السرعة طبعاً .. سوف أتوتر ثلاثة أو أربعة أيام ، ثم أبدأ الكلام عن مؤامرة المخابرات المركزية لقتلى ؛ لأننى أملك أسرار القنبلة الهيدروجينية ، ثم تأتى مرحلة الكسرولة على الرأس .. القصة دوماً هكذا ..

الضوء الساطع المنبعث من خمسة مصابيح فلورسنت جديدة يشعرك بأنك لا تسترخى ، وإنما أنت فى ستوديو 3 فى التلفزيون المصرى ..

للمرة الأولى بدأت أفطن إلى أنها كانت فكرة غبية ، وأن الكهربائى بعيد النظر حقاً ..

هكذا نهضت وأغلقت مصباحين ..

ثم توكلت على الله وأغلقت اثنين آخرين ..

هكذا لم يبق سوى مصباح واحد يبعث ظلاً لا بأس به .. ربما أموت .. لكنى سأموت بكامل قواى العقلية ...

لكن الوضع لن يستمر بهذه الطريقة .. لابد من حل ما ..

هنا خطر يبالى اسم نسيته منذ زمن ..

الدكتور (عماد بدوي) ..

- 3 -

كان د. (عماد) أستاذاً لعلم الفيزياء ، وقد حصل على الدكتوراه من إنجلترا ، في ذات الأعوام التي كنت أدرس فيها ..

يبدو أن الجو في الجزر البريطانية في تلك الوقت كان مسموماً ؛ لأن كل من حصل على الدرجة وقتها تميز بعد ذلك بشيء من غرابة الأطوار أو الخبال ، في رأى الآخرين ..

هناك رفعت إسماعيل الذي يعتبره الكثيرون مجنوناً من طراز خاص راق ، وهناك د. (عماد بدوي) الذي عاد إلى مصر واتهمك في أبحاث غريبة جداً لم يطلبها أحد منه ، ولم يدر أحد إلا ما تقوم به في مصر ..

كان رجلاً لا يعمل إلا بإيحاء من حدسه ومزاجه المتقلب .. لهذا قد يكون موضوع المحاضرة عن المغناطيسية ، فيتكلم عن لغة الفراغة والألفاظ التي تحيط بالمقابر الفرعونية القديمة ..

كان لابد أن تتسرب أخبار كهذه عن طريق الطلبة لعديد الكليات .. هذا رجل يشرح منهجه الخاص الذي لا علاقة له بالمنهج الذي يجب أن يلم به الطالب ..

لم يكن د. (عماد) من الطراز الذي يقتلع أو يصفى ، وكان حالاً بشدة ؛ لذا اعتقد أنه تشاجر مع العديد عدة مرات ..

هو فى الخامسة والخمسين من عمره الآن ، له مظهر لا يوحى بالعظماء على الإطلاق ، إنما هو مقاول يجيد عمله .. للون الأسمر ، والبداية ، والشارب الكث العريض حتى ليوشك على لمس حلمتى أذنيه .. بذلة مفتوحة لم تمر على الكواء منذ زمن ، وتحتها قميص طار منه زر أو اثنان ، وكرش عملاق رجراج يحبسه فى حزام جلدى مهترئ اشتراه من إنجلترا منذ عقدين تقريباً .. والغريب أن طابع الثياب الرثة هذا لم يعطه طابع راهب العلم مثل لينشباين مثلاً ، ولكنه أعطاه المزيد من طابع المقاول الذى يكسب كثيراً جداً لكن لا وقت له للعناية بمظهره ..

كان - باختصار - درساً يظنك التحرر من القوالب المحفوظة فى ذهنك .. للعلم الأصلى الملتقى بوجود فقط فى أفلام الخيال العلمى .. على كل حال ، كان لابد أن يطرد من الجامعة يوماً ما ، والسبب كان قضية شبه أخلاقية أتيج لى أن أرى طرفاً منها ، ولن أحكيها لك .. على الأقل الآن .. كلا .. لا يذهبن مخك بعيداً ، وإنما يتطرق الأمر بتجارب غير إنسانية لا يمكن لأحد أن يوافق عليها ..

ذهبت إلى بيته ظهر اليوم التالى ؛ لأننى أعرف أنه يتأخر فى الاستيقاظ ..

يقيم الرجل فى الزمالك ، فى شقة فاخرة ابتاعها لدى عودته من البعثة ، وقد تزوج مرتين وطلق مرتين ؛ لأنه ما من أنثى تتحمل عصبية وجذبه .. ومن حسن الحظ أنه لم ينجب .. وإلا كان على أطفاله تحمل الكثير ..

الحقيقة أننى لا أعرف من أين ينفق بالضبط .. ولعله يعتمد على ميراث ضخم ...

فتح لى الباب ، وكان ما زال يلبس منامته وهو موشك على الشجار ، فلما رأتى ضحك وشدنى إلى الداخل وهو يسبنى بلا سبب واضح ..

كان يملك أسباباً كافية كي يحنق على ، لكنه كان يملك أسباباً أقوى كي يحترمنى .. أنا لم أتكلم ، ولعل هذه غلطة عمرى ، لكنه يعرف أننى لم أتكلم .. بالنسبة إليه من يتكلم حقير واش ، بينما بالنسبة إلى من يتكلم هو شخص أكثر حرماً وأشجع منى ..

لعل هذا من حظى الحسن ، لأنه ما كان ليسمح لى بدخول بيته فى ظروف أخرى ..

كانت الشقة الواسعة مرتبة بعناية ؛ مما دلنى على أن هناك من ينظفها له . وكانت مظلة بعناية وإحكام ، بحيث يصعب أن تصدق أننا فى وقت الظهر . وكانت هناك شرفة واسعة مسقوفة

بها مجموعة من أقفاص للعصافير ونبتات الظل .. وهناك سلحفاة مملعة ثقيلة الظل تزحف في مكان ما ..

برغم كل شيء ، يحيا هذا الرجل حياة جميلة ..

« هل تزوجت يا رفعت ؟ .. لا ؟ .. هذا أفضل .. خننى لنا كنموذج الرجل الذى تزوج أكثر من اللازم ، وفى النهاية أعيش مثلك .. »

وراح يسألنى عن كل شيء وعن (ماجى) التى كان يعرفها طبعا .. إن (ماجى) فيزيائية مثله كذلك ، وهذا جعله يعرفها جيدا .. نهض ليحضر لى شينا أشربه ..

رحت أنظر إلى الجدران البيضاء الأنيقة من حولى ، ولاحظت أنه لا يعلق أية لوحات أو قطع ديكور .. إنه عملى دوماً ، فلا شك أنه يعتبر الفنون كلاماً فارغاً ..

هنا رأيت الظل !

يرتسم أمامى على الجدار فى وضوح .. إنه ظل عملاق مهيب يحمل شينا ما فى يده .. لكن الأسوأ أنه يصغر فى كل لحظة ويزداد تحديداً ...

يصغر . يصغر ..

تحفرت ووقفت فى مكتى لا أعرف إن كنت أتلاى (عماد) مستغنياً أم أفر من هنا أم ...

هنا فوجئت بعماد يقف جوارى وهو يحمل صحيفة عليها زجاجة مياه غازية ..

« ما بك ؟ .. تفضل ! .. »

نظرت إليه ونظرت إلى الظل فوجدت ظلين .. الظل الثانى ظل رجل نحيل أصنع يتناول زجاجة مياه غازية شاكراً . لقد كان ما رأيت هو ظل عماد القادم من المطبخ المضاء ..

عندما تصير الظلال عدواً لك فلت فى طريقك للجنون بالتأكيد ؛ لأن الظلال فى كل مكان ...

لحسن الحظ أنه لم يلحظ حماقتى .. جلس وراح يعبث بشاربه بعض الوقت ..

فى النهاية بدأ يسألنى عن سبب قدومى ، فقلت له :

« للظلال .. »

حك ذقنه نصف النامية فى اهتمام وقال :

« الظلال .. فهمت .. موضوع مهم فعلاً... لكن ماذا فى

الظلال ؟ .. »

- « إنها تلاحق الناس ... يبدو أنها تقتلهم كذلك .. لو اعتقدت أنني جنت فأت مغطى على الأرجح .. »

- « أنا لا أعتقد أنك جنت .. أنا مؤمن بأنك مجنون فعلاً يارفت .. لن يحدث ما هو أسوأ .. »

شرحت له القصة بالتفاصيل الدقيقة ، وقد ظل يستمع لى فى اهتمام ..

فى النهاية ، وقد أدرك أنني أنهيت ما عندي ، قال :

- « أنت تتحدث عن قوم الظلال .. تعرف أنني مهتم بهذا الموضوع .. »

- « لهذا جئتك ... »

وضع ساقاً على ساق وأشعل لفافة تبغ كريهة الرائحة ، ثم راح يحكى عن قوم الظلال ..

لكنى وجدت الوقت الكافى كى أتذكر ...

- 3 -

كان المطر ينهمر مدرراً فى تلك الليلة منذ عشرين عاماً .. أعرف أننا لسنا فى (سيبريا) وأن جو مصر جاف على الأرجح ، لكن للمطر كان ينهمر مدرراً ومعه يشق البرق السماء .. الحق أنها كانت ليلة جديرة بالرعب القوطى ..

قلت لنفسى ، وأنا أوقف السيارة بينما المطر يفرق الزجاج :

- « لقد أعلت طبيعة الممرح واعتت به .. لا ينقصنا إلا أحداث درامية مروعة .. أحداث مرعبة تتناسب مع هذا الجو .. »

وفتحت الباب .. طبعاً هذا خطأ قاتل فى العواصف الرعدية ؛ لأن أفضل سياسة هى أن تبقى فى السيارة كما أنت إلى أن تنتهى العاصفة ، لكنى قررت أن القوطية لن يصل حماسها إلى درجة إلقائى ميتاً بصدمة كهربية ...

كانت عيادة (صفوت) الجراحية تقع فى الطابق الأرضى ، بينما يسكن هو فى الطابق العلوى . أمام البيت حقل يمتد لرمى البصر ، وقد جعلت الأمطار كل شىء موحلاً رطيباً ؛ لهذا كان على أن أدور حول السيارة بحذر شديد ..

أخيراً وضعت قدمي على مدخل البناية المبنية بالطوب الأحمر ،
فدخلت ..

أرى لافتة تقول (صفوت عبد الفتى - جراحة عامة) . للباب
معلق طيفاً ؛ لأنه ما من مجنون يمكن أن يأتي في وقت كهذا ..

دققت الباب عدة مرات فافتح وظهر لي وجه (عماد) ... كما
قلت ، كان هذا منذ أعوام طويلة ، لهذا كان أكثر صبا ووسامة .. لم
يكن له شارب المقاولين المرعب هذا ، ولم يكن طلاقه الأول قد
وقع ؛ لهذا كانت ثيابه تحمل لمسة عناية الأنثى لا لمسة
الصرف الصحي .

« لابد أن العصفه جعلت وصولك متعباً .. تعال بسرعة .. »

في الداخل كان زميلنا المشترك (صفوت) ... (صفوت) رجل
صغير الحجم ، حليق الوجه ، أقرب في كل شيء إلى طفل صغير
هياب ..

كان واقفاً في وسط العيادة الخالية ، وقد بدا عليه التوتر ..
صافحتني وقال :

« لا أعرف لماذا طلبك (عماد) في هذا الجو الكريه ، لكن
مرحباً بك .. ساعد لك الشئ حالاً .. »

نعم !.. الشئ !.. لا شيء كالشئ للتدفئة وإزالة الإرهاق ..
جلست على مقاعد الانتظار أرتجف ..

كانت للمرة الأولى التي أزر فيها صفوت في عيادته الريفية ..
هنا كان يجري الجراحات ، وكانت هناك ثلاث غرف مخصصة
لما بعد الجراحة .. هذا تنسيق شائع في الريف ..

لم يكن هناك أحد على الإطلاق . ولما جاء الشئ الساخن
رحت أرشفه في تلند .. لاحظت أن الرجلين متوتران بحق .. ثم
غاب (صفوت) داخل إحدى الغرف للحظة ..

عاد بعد دقيقة ليقول لي :

« فتربنا جداً .. » « ...؟ هبناك ع .. »

لم أفهم ما يتحدث عنه ، لكن (عماد) قال لي في كياسة :

« أعتقد أن عليك أن تفرغ من الشئ بسرعة .. »

لم أكن أفهم سبب استدعائي على الإطلاق ؛ لذا نهضت متجهاً
إلى حيث أشار لي ..

كانت غرفة بها فراش من تلك الغرف التي يقضى فيها
المرضى أيام ما بعد الجراحة .. فراش طبي .. لا أثاث تقريباً ..

على الفراش رقد رجل مسن يبدو واضحاً من ملامحه أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة .. يحدث فينا بعينين جاحظتين مذعورتين لا تريان .. ثمة زجاجة محلول بجواره ، فرغت فتدلت بلا حيلة .

قال (صفوت) بصوته المبحوح :

« اتسداد معوى متقدم .. لم يكن هناك ما يمكن عمله . إنه

يُحتضر الآن .. »

شعرت بغیظ لأنه يقول هذه الدقائق أمام المريض .. المريض الذى أعرف يقيناً أنه يسمع ما نقول ، وإن لم يبد عليه شيء ، حيث وقف على الحافة بين عالمتنا وعالم آخر ...

« وأقاربه ؟ .. »

« لا أقارب له .. إنه غريب عن بلدنا ، ومن جاعوا به تركوه هنا .. بعد وفاته سوف نبليغ الشرطة عن ناقص الأهلية هذا .. »

ونظرت إلى أرجل الفراش ، فبدأت أفهم ..

واقشعرت جلدى ..

تحت كل رجل من أرجل الفراش كان هناك جهاز زنجيرى غريب يذكر بالميزان .. وقد قصلت أربعة الأجهزة بمؤشر رقمى على بعد خطوات .. كانت هناك كاميرا وجهاز تسجيل .. ولكن أين لك ... ؟

بحثت عنه فوجئته .. خيمة من المشمع الشفاف كأنها من خيام الهنود الحمر ، تصلح لوضعها فوق الفراش ، بحيث تغطي المريض تماماً ... هذا هو بديل الناقوس الزجاجى ...

كان صفوت وعماد يتعاونان الآن على وضع المشمع على الفراش ، بحيث يغطي المريض تماماً .. فصحت فى رعب :

« ماكنوجال ! .. »

قال عماد والعرق ينهمر منه بسبب الجهد :

« أنت تعرف الكثير .. لم أقل لك أننا على حق فى استدعائه يا صفوت ؟ .. »

ثم التفت بعض الصور للميزان الرقمى ، وفتح جهاز التسجيل وقال :

« الساعة 11 مساء .. لقد بدأنا . الوزن ثابت .. »

كانت تجربة الجراح الأمريكى ماكنوجال فى بداية القرن العشرين هى التى تركت فى الذهن الغربى فكرة أن الروح وزنها 21 جراماً ..

كان مكدوجال جراحاً محترماً من ماساتشوستس في أوائل القرن العشرين ، حاول أن يخضع للدين للعلم .. وقد آمن بأن للروح تحتل حيزاً من الفراغ ، دعك من أنها خفيفة جداً .. لهذا تطفو بعد الموت . قام عام 1907 بإجراء تجربته الرهيبة التي نكرت للناس بجو قصص د. فرانكنشتاين . حيث قام بوزن ستة محتضرين عن طريق وضعهم على أسرة متصلة بميزان حساس . ولاحظ فارق الوزن قبل وبعد الموت ، الذي افترض أنه وزن للروح ، وقد خيل له أنه 21 جراماً . أربعة كانوا مرضى درن ، وواحد كان يموت من مضاعفات السكر ، وواحد بسبب مجهول. مزية الموت بالدرن هي أنها ميتة هادئة .. المريض لا يتحرك تقريباً .. الميتة بطيئة ؛ لذا يكون الأطباء منتظرين للموت قبل ساعات من حدوثه ، وهذا يساعد في التسجيل ..

أجرى تجارب مماثلة على الكلاب ، لكنه لم يلاحظ أى اختلاف في الوزن عليها . هكذا افترض أن الروح لها وزن وأن الكلاب لا روح لها .

لا تعتبر هذه التجارب ذات قيمة علمية ما ؛ لأنها غير قابلة للتفسير والتكرار . لكنها استقرت في الوعي الجماهيري الغربي . إن العينة صغيرة جداً ولا تسمح باستخلاص نتائج إحصائية .. لكنك

لا تستطيع أن تزن ألف محتضر لتأتى بأرقام دقيقة .. هذه تجارب مخالفة للقانون والعرف ؛ لهذا يجريها من يجريها بنفس عجلة ونفرة ولارتباك الجريمة ..

رأى بعض الأطباء أن العرق الذي يتبخر من الجلد هو السبب ، مع ما يصاحبه من ارتفاع درجة حرارة الدم، بينما الكلاب لا تعرق لأنها تلهث. هذا هو فقدان العرق غير المحسوس insensible perspiration الذي لم يضعه مكدوجال في الحساب . قال مكدوجال في بحثه إنه راعى هذه النقطة وقدر معدل التبخر بجزء من ستين من الأوقية في الدقيقة، بينما المريض فقد ثلاثة أرباع أوقية في ثلاث ثوان. حتى إفراغ المثانة غير وارد لأن البول أو البراز بقى على الفراش محتفظاً بوزنه .

توفي مكدوجال عام 1920 ، ومن الواضح أنه لم يملك روحاً علمية تجعله يطلب ممن حوله أن يزنوا جسده أثناء الاحتضار .

لم يترك الرجل علامة مهمة في العلم، لكنه ترك علامات على الثقافة الشعبية في الغرب . إن الروح معنى يتحدى الصفات والمقاييس الفيزيائية، وإلا لأمكن أن نقول يوماً ما إن الكبرياء طولها كذا وعرضها كذا، وإن الشجاعة وزنها كذا . دعك من اللا إنسانية الواضحة في هذه التجارب ؛ حيث يتحول إنسان محتضر إلى فأر تجارب .

الآن وقد وقفتُ أمام هذا المشهد الرهيب ، استعدت كل هذه الذكريات ..

وفهمت لماذا طلبوني ..

فهمت كذلك لماذا اختاروا هذا الوقت العجيب وسط هذه العاصفة .. الحقيقة أن الوقت هو الذى اختارهم .. لقد كانوا ينتظرون لحظة الاحتضار على أحر من الجمر ، فلما جاءت هرعوا يعدون كل شيء ..

تجربة قاسية خائبة ، والأدهى أنها أجريت فعلاً منذ نحو سبعين عاماً .. فما جدوى تكرارها ؟ ..

ما الذى يحاولون أن يجدوه ؟ .. وما الذى يتوقعون أن يشبهوه ؟

الأغرب أن (عماد) المادى الذى لا يؤمن بشيء ، بجرى تجاربه على فرضية أن لروح لها وزن ! .. على الأقل (مكنوجل) كان متديناً إلى درجة التعصب ، وقد حاول أن يفرض إيمانه على المنطق العلمى .. لكن كيف بجرى تجارب على الروح من لا يؤمن بها ؟

سمعتَه يقول :

« لقد بدأ الوزن ينقص .. دون القياس بدقة مع الساعة .. رفعت .. هلا ساعدتني ؟ ... لماذا لا ترد ؟ .. »

هنا نظر إلى عماد نظرة لم أنسها حتى اليوم ، وقد رأى توترى واشمئزأى فقال :

« أنت رجل علم يا رفعت .. عليك أن تكون كذلك .. دعك من أنه لا يشعر بشيء .. »

قلت من بين أسناني :

« ومن أدراك ؟ .. وهل تحب أن تحتضر أنت - بإذن الله - فيحيط بك الأوغاد الفضوليون ليأخذوا مقاييسك ؟ .. فلتساعده على نطق الشهادتين لو كان مسلماً ، أو تلك له بقس لو كان مسيحياً .. لكن لا تضعه على ميزان كائنه كيلو من اللحم .. »

كنت قد سمعت كلاماً متناثراً عن (عماد) ، لكنى لم أصدق .. هذا الكلام بلغ مسمع كثيرين فى كليته على كل حال ، وهذا هو ما قصده بالأعمال غير الأخلاقية .. إهانة البشر ووزن المحتضرين أسوأ ألف مرة من أى شيء آخر قد يكون خطر لك .. ما القيمة الفيزيائية العظمى التى سيحصل عليها بعمل كهذا ؟ !

هكذا تدفقت مغفلاً المكان ..

تدفقت أركض تحت المطر المنهمر نحو سيارتى .. هناك وقفت جوارها ورفعت وجهى للسماء تاركاً الماء يفرق وجهى وعينتى

ويتسرب تحت يافتي إلى ما تحت الجلد تقريبا .. أريد أى شيء قادم من السماء ليفصل ما أشعر به ..

لم يلحق به أحد ، فاطلقت بالسيارة مبتعدا ..

بالطبع كان صفوت يعتقد يقينا أنني سأبلغ الشرطة وسوف يخرّب بيته ، ولعل هذا كان أفضل شيء يمكن أن يحدث لهما . النفس البشرية مقدسة ولا يمكن العبث بها . لكنى بصراحة لم أستطع تحمل فتح أبواب الجحيم التى ستفتح فوق رأس هذين الاثنين ..

العجوز كان يحتضر فعلا . هما لم يقتلاه ..

لثأت الكارثة من شخص آخر سوى ... أما أنا فخير ما أقطعه هو أن أصمت وأبتعد نهائيا عن هذا المجنون (عماد) ..

وهذا ما كان .. ومن رحمة الله أن الانتقام السماوى جاء بسرعة وتم فصله من الجامعة . ومنذ ذلك الحين لم أسمع عنه إلا أخبارا متفرقة ، وقبلته مرات محدودة .. اعتقد أنه ممتن لى لأننى لم أملأ الدنيا صراخا فى تلك الليلة .. كان يتوقع وشاية ولم تحدث ...

سمعت عن تجاربه الغريبة واهتماماته الأغرب فلم أندش ..

لكنى اليوم أعود له طالبا رأيه ..

- 4 -

عن قوم للظلال يحكى د. (عماد) فيقول :

- « منذ زمن بعيد يتكلم الناس فى الغرب عن الظلال التى تراها بركن عينك .. هذه الظلال لا تمثل أشخاصا بالضبط ، لكنها كائنات حية مستقلة حرة الحركة ، وقد استطاع البعض أن يروا لها حيونا حمراء .. علامة يقترن ظهور هذه الكائنات أو الظواهر برعب شديد وتوجس لدى من يراها . كل الشهود قالوا ذلك .. »

يقولون إن هذه الكائنات تتوارى فى الظلام وتمتزج بالظلمة ، فلا تقدر على رؤيتها . أما محاولات رؤيتها صباحا فتكفل بالفشل غالبا .. أنت ترى الظل للحظة ثم يختفى بسرعة البرق .. »

قلت له : (نعم) (حسبه) (فى ذلك العصر)

- « أنا رأيت تلك العين الحمراء بالتأكيد .. »

بما لا يراها

لم يعلق وواصل الكلام :

- « تفسيرات كثيرة قيلت حول هذه الظاهرة ، بعضها ما وراقى ..

ماذا لو كانت هذه أشباحا ؟ .. هنا فارق مهم ؛ لأن الأشباح كما يحكى من رآها لها شكل بشرى ، وربما تلبس ثيابا .. بينما قوم

الظلال ظلال غير محددة الشكل .. من المستحيل أن تصف الشكل بالتفصيل أو تقول : « هذا شبح عمى أو هذا شبح زوج خلة زوجتى .. » لكن هناك شكل رآه الكثيرون وهو منتشر جداً لدى من شاهدوا هذه الظواهر ، وقد اصططلحت المصادر (الفورتية) على تسميته (رجل القبة) ..

هناك من قال : إنها شياطين ، وهناك من تحدث عن الإسقاط النجمى .. أنت تسمع عن الإسقاط النجمى Astral projection عندما تكون لدى بعض الأشخاص القدرة على أن يغادر وعيهم أجسادهم ليُخلَقوا في فضاء الغرفة .. ماذا لو كانت هذه الظلال هي ظلال أشخاص يمرون بالتجربة ؟ .. هناك من يخلق في غرفتك بالذات وأنت رأيت لحظة التحليق ..

نفس المنطق يحكم فكرة (مسافرى الزمن) .. من الممكن أن يتوصل الناس في المستقبل إلى ابتكار آلة الزمن . معنى هذا أن عالمنا يعج بهؤلاء الذين جاءوا من الغد ليروا عالمنا .. من الوارد جداً أن واحداً من هؤلاء يراقبنا الآن .. وقد يكون من الممكن أن نراه للحظة كظل عابر .. »

نظرت حولى وشعرت برعب ..

أنا أؤمن أننا لسنا وحدنا في هذا العالم ، وأن هناك موجودات لا نفكر على رؤيتها كما أننا لا نرى الموجات تحت الحمراء وفوق البنفسجية ، ولا نسمع للموجات الصوتية عالية التردد .. إن هناك عالم كامل يفوق حواسنا . برغم هذا تفرغنى هذه الفكرة . أن تتصور أن الغرفة التي تجلس فيها الآن مزدحمة كحافلة في القاهرة وقت الذروة .. هناك قصة شهيرة لـ (لافكرافت) عن عالم ابتكر جهازاً يقوى الحواس ، بحيث يصير بوسعك أن ترى ذلك العالم الخفى ، والنتيجة أن الرجل جن فوراً ..

لقد قابلت هؤلاء السياح القادمين من الغد من قبل ، لكن لا أعتقد أن المكان يعج بهم ، ولا أنهم دفعوا تذاكر غالية ويجلسون صفوفاً الآن يتسلون بمناقشتى مع د . (عماد) وهم ينتهمون الفيشال ..

واصل د . (عماد) الكلام :

- « هناك نظريات عن أبعاد موازية لنا .. هناك سكان في هذه الأبعاد ، ومن حين لآخر يطل أحدهم برأسه من بُعد فيصير مرئياً لنا .. أى إن هذه الغرفة تتسع لأسرة أخرى لا نراها ولا نراها .. نحن نتكلم ونتناقش وهم يتكلمون ويتناقشون ، وكلانا لا يرى الآخر ولا يعرف بوجوده .. لكن قد يتقرب هذا البعد في لحظة فترى هؤلاء للحظة .. »

قلت له في كياسة :

- « معظم هذه النظريات أعرفها بالطبع ، لكن ألا ترى أنها تقود إلى الجنون بكفاءة تامة ؟ »

- « لهذا يحسن ألا تتسرب هذه النظريات للجميع .. إنها نظريات للخاصة فقط .. »

ثم فكر حيناً ، وقال وهو يتحسس شاربه الصلصال :

- « هناك من يتكلم عن زيارات سكان الكواكب الأخرى .. ربما هم قوم لهم مظهر الظلال .. من يدري ؟ .. »

قلت له :

- « لكن الأمر بهذا الشكل يفسح للكثير جداً للخيال والبارانويا .. المصححات العقلية تعج بالمؤمنين بهذه النظريات .. »

ابتسم في ثقة وقال :

- « طبعاً .. هناك تفسير الباريدوليا Pareidolia .. كل صور تقع على أطراف مجال البصر .. كل ما يقع خارج البقعة المركزية الحساسة للعين .. هذه أشياء تعرف العين أنها موجودة لكنها لا تميزها جيداً .. فماذا يفعل المخ ؟ .. يكمل الصورة من خياله ويتصور أنها وجوه بشر ... »

هناك تفسيرات أخرى كثيرة ؛ منها اضطراب الحالة النفسية .. باختصار : الهلوس .. هناك الحالات الوسط بين النوم واليقظة .. هؤلاء الذين يحلمون بأعين مفتوحة .. شخص يمشى ويبدو أمام الناس يقظاً ، لكنه في الحقيقة نائم تماماً .. هكذا يرى بين النوم واليقظة وجوهاً تتبدى في الظلمة وتزول .. يصحو ليحكى عن (الظلال التي تتربص به) .. »

قلت ، وقد بدا لي الكلام مأثوفاً :

- « المخدرات لها دور عظيم في هذا .. »

قال ضاحكاً :

- « كلنا نعرف أن الثملين في الغرب يرون أفيالاً وردية .. لا أعرف لماذا لا يرى الثملون في مجتمعنا ذات الشيء .. لكن هذا يدل على أن كل هلوسة تتبع من خلفيتك ووجدتك الجمعي . أنت طبيب يا د . رفعت وتعرف أن كل المنشطات السميثاوية قد تجعلك ترى قوم لظلال .. في مصر يتعاطون الإفرين أو حقن الماكستون فورت الذي هو اسم التدليل لمادة (الأمفيتامين Amphetamine) وكلاهما منشط سميثاوى قوى .. وكلاهما له ذات التأثير قريباً .. »

انتهى من كلامه ، فراح يعث في شاربه منتظراً رأيي ، فقلت :

- « كل هذا جميل .. خلاصة ما تقول : أنه من الطبيعي جداً أن يلاحقنى ظل .. لكن هذه الظلال تقتل على قدر علمى .. »

- « لم يتكلم أحد عن أن قوم الظلال يقتلون .. إنهم يشيرون الرعب فقط .. لا أكثر .. هذا جديد على .. »

- « دعك من أن ظلاً يلاحقنى .. أنا واثق من هذا .. جربت أن أعيش فى ضوء ساطع لكنى لم أتحمل أكثر من نصف ساعة .. هذا هو الطريق للجنون .. ربما أنا على حق ، وربما أنا مخبول أو مدمن أفدرين .. لكنى لا أريد فهم للظلال التى تلاحقك ، قدر ما أريد فهم الظلال التى تتخلى عنك .. »

نظر إلى فرأيت فى عينيه تلك النظرة ..

النظرة التى لم أرها منذ عشرين عاماً ..

- 5 -

هل أنت جائع ؟ .. نعم .. لم أتناول الغداء بعد ..

ها نحن ذان جالسان فى تلك المطعم الفاخر بالزمالك ، وبرغم تنافض مظهره مع ... ربما تنافض مظهرانا نحن الاثنين مع المكان ، لكن الكل كان يعرفه ، وكان يحس هذا وذاك فى مرح ..

طلب كمية هائلة من الطعام تناسب حجم شاربه .. وكان يتكلم فى حرارة وقوة . ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة فيها مشروب كحولى ، وصب بعضه لنفسه فى كأس صغيرة لأن المكان لا يقدم الخمور ، وعرض على بعضه فهزرت رأسى أن لا .. كنت أعرف أنه يشرب الكحوليات منذ كنا فى إنجلترا ..

قال لى وهو يعرق بغزارة من نهم الأكل :

- « أنت لا تشرب الخمر ، وتصلى ، وتصوم ، كعهدى بك ..

أنت مثالى كأبطال القصص ، ولا تتوى أن تتغير .. »

قلت فى فتور :

- « لم أر بطل قصة أصلح نحيلاً مريضاً من قبل ، ومعظم

الناس مثلى ، لكن لا أحد يزعم أنهم أبطال .. »

- « إذن أنا البطل .. أنا ألعب دور العالم الشرير المجنون في رواية قوطية .. هل تذكر تلك الليلة ؟ .. عيادة (صفوت) ؟ .. »

- « ومن يستطيع أن ينسى ؟ »

قال وهو يعيد الزجاجة لجيبه :

- « أنا أجريت للتجربة عشرات المرات .. لن تصدق هذا ، لكنى جربت كثيراً جداً .. ونتائج ما عرفتته في ذهني ، غير قابلة للنشر .. ما من مجلة عالمية أو محلية تنشر أبحاثاً كهذه .. ما توصلت له هو أن الوزن يقل فعلاً لدى الوفاة ، ولا يمكن تفسير هذا بالبخر .. لن أقول مثل مكذوَجال إن هذا وزن الروح ، فهذا كلام صادم غريب ، لكنى مصر على أن هناك شيئاً ما نفقده عندما نموت ... لا أعرف ما هو .. هذا الشيء يملأ أجسادنا . أحياناً يزيد حجمه على حجم أجسادنا ، من ثم يبرز للخارج على شكل هالة ..! »

اتحشرت المكرونة في فمي حتى اضطررت أن أشرب كوباً من الماء لأبتلعها ..

هذا الرجل يتكلم عن (بالوظة) لا عن روح . (بالوظة) تحاول أن تضعها في كيس فلا تنحسر عنها وإنما يبقى بعضها بالخارج ...

لم أكن أعرف وقتها أن من يدعى (دونالد كاربنتر) سوف يكرس حياته عام 1998 لدراسة هذه الظاهرة .. هل جن الجميع ؟!

قلت له في غيظ :

- « تريد القول بأن الروح (تَبْظ) ! .. »

- « لم أتحدث عن الروح لحظة .. أتحدث عن طاقة غامضة في أجسادنا .. هذه الطاقة قد تتخذ شكل ظل .. »

- « لكن الظل الفيزيائي معروف ومفهوم .. مكان لا يصله النور فيكشف عن حدود أجسادنا .. »

- « لسبب ما أعتقد أن بوسع تلك الطاقة أن تتخذ شكل ظل .. ثم يصير بوسعها الحركة ، وتصير لها حياة مستقلة .. »

- « يا سلام ! .. والظل الفيزيائي المعروف ؟ .. »

- « أعتقد أن فقدان هذه الطاقة يؤدي إلى نوع من الشفافية فيحتفى للظل . لاحظ أننا لا نتحدث بلغة فيزيائية ، بل بلغة لقرب للفلسفة .. »

غرست الشوكة في قطعة من الإسكالوب كأنه علم الولايات المتحدة الذي غرسه أرمسترونج على سطح القمر ، وعقدت أناملتي تحت ذقني وسألت :

- « إذن حسب كلامك يمكن ترتيب الأحداث .. هناك أشخاص فقدوا هذه الطاقة أو هذه المادة في ظروف غامضة .. هكذا لم يعيدوا يتركون ظلاً .. وبما أن خروج هذه الطاقة أو المادة يقترن بالموت ، فإتهم ماتوا على الفور . تحررت هذه الطاقة أو المادة وراحت تجوب المنطقة .. من حين لآخر يراها البعض فيجنون أو تتوقف قلوبهم ذعراً .. هل هذا ما تقول ؟ .. »

جرع ما في كأسه مرة واحدة ، وشهق كأنه يشرب حمض الكبريتيك ، وقال :

- « نعم .. لا أستطيع أن أؤكد كلامي أو أبرهن عليه حالياً .. لكنني أعتقد أنه صحيح »

ثم مد يده ، يبحث بإصبع واحد في جيب سترته للمبقة أصلاً ، حتى أخرج ورقة مطوية . فتحها بإصبعين كي لا تتلوث ، ثم راح يقرأ :

- « ثمة قصص مماثلة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا .. أساطير عن أشخاص فقدوا ظلهم ثم ماتوا في اليوم ذاته .. هذه القصص طبعا لا تنشر في صحف محترمة ، وإنما في المجلات المهتمة بالظواهر الفورية على غرار (الفضائيون خطفوني وأجروا عليّ جراحة ثم أعادوني) .. طبعا معظم هذه المقالات يكتبها مجانين .

لا توجد تقارير عن أشخاص قتلهم ظلال ، لكن تذكر أننا لا نرى سوى جثة رجل مات بسكتة قلبية .. ربما كانت الظلال هي المصلولة .. »

- « هل تعنى أننا في عصر الظلال المتحررة ؟ .. »

- « ربما هو عصر الناس الذين يلاحظون الظلال المتحررة .. لسبب ما أشعر بأن من كتبوا قبلنا همقي لا يلاحظون أي شيء .. تأمل صورة جنك بشاربه المنتصب والطربوش على رأسه والاعتدال الشديد بنفسه .. هل تتصور أن هذا الرجل يمكن أن يلاحظ اختفاء ظله ؟ .. »

ثم ابتلع ما في طبقه وقال :

- « لدى طريقة لاختبار هذه الفرضية .. سوف نجربها معا .. »

- 6 -

في الحقيقة لا أستطيع القول بأننى موافق على هذا المنطق ..
هناك قضيتان أو مقدمتان منطقيتان :

للقضية الأولى : فقدان هذه الطاقة يؤدي إلى نوع من الشفافية ؛
مما يجعلك بلا ظل .

القضية الثانية : فقدان هذه الطاقة يقترن بالموت .

هى معادلة بسيطة من الدرجة الأولى . الاستنتاج المنطقي
هو أن الموت يجعل الناس بلا ظل ..

لكن مشاهدات كل يوم تقول للعكس ...

لكنى حائر .. لقد رأيت ظلاً يطاربنى . لا شك فى هذا .. ظلاً
بلا صاحب .. دعك من أننى رأيت فعلاً أننا بلا ظل .. هذا
يجعلنى مستعداً لتجربة ما يتكلم به هذا الرجل ..

الرجل يحاول أن يربط بين الظل والوعى ، أو الروح التى لا يريد
أن ينطق باسمها .. هذا غير صحيح طبعا .. ما من عمود نور
يحترم نفسه إلا وله ظل .. ما من تمثال فى ميدان إلا وله ظل ..
الظل ظاهرة مادية تماماً لا يمكن تفسيرها على أى ضوء آخر .

فى الثالثة بعد منتصف الليل شعرت بظماً شديداً ..

لا تتوقع أننى كنت نائماً ؛ فأنت تعرفنى وتعرف أن هذه
الساعة تمثل الظهيرة بالنسبة إلى ؛ لهذا كنت فى مكتبى أنهى
بعض الأوراق العلمية ، ثم نهضت قاصداً المطبخ ..

ملأت كوباً بالماء البارد ، وكأنت هناك بعض شرائح اللحم
المحمر باقية من الغداء ، قدسست واحدة فى فمى على سبيل
الشراهة ، برغم أن النقرس انضم إلى قائمة أمراضى التى تحتاج
إلى مجلد ضخمة .

عدت إلى المكتب المضاء . المكان الوحيد المضاء فى الشقة
كلها ..

هنا رأيت الظل ..

كان معتداً على الجدار الشرقى بين مكتبتيين .. عملاقاً يبلغ
السقف تقريباً ، وهو يشبه ما رأيته من قبل .. شكل مبهم غير
محدد .. تعرف بسهولة أنه ظل إنسان ، لكن من الصعب أن
تعرف من هو .. هناك جمرتان تتوهجان فى موضع العينين ..
تأثير يشبه النقاط الحمراء التى ترسلها مؤشرات الليزر
المستعملة فى المحاضرات ..

لقد دخل المكتب بينما أنا فى المطبخ ..

هذه الظلال تتصرف كالفئران أو الأبارص ..

فى حذر ودون حركات زائدة ، مدت يدي فى جيبي وضففت على الزر ..

دوى صوت جرس ثم انفطت الدائرة ...

وفى اللحظة التالية ظهر (عماد) جوارى وهو يحك جسده فوق المنامة .. كان شعره منكوشاً ووجهه مرهقاً ، لكنه راض عما يدور ..

لقد كان نائماً فى الغرفة الأخرى حسب اتفاقنا .. لا أعرف متى يظهر هذا الظل ؛ لذا عرض على أن يبيت عندي بضعة أيام ..

كانت زيارته مزعجة ووجوده ثقيلاً .. شارب به يشير غيظي كلما رأيته ، كما أنه يأكل كالحنازير ، لكنه منحني صحيفة ألمية أولاً (كان من الصير أن أتزوج لمجرد ألا أصير وحدي) ثم أعد كل شيء للحظة ظهور هذا الظل ..

كان الظل يحاول الفرار الآن ..

اتجه نحو الباب فاتسنى بزاوية قائمة على جدارين كعادة الظلال ، لكنه توقف أمام الباب عاجزاً عن اجتيازه ..

عماد قد وضع كشافات الأشعة تحت الحمراء فوق كل باب بالشقة . يعتقد أنها قادرة على حبس تلك الطاقة ؛ فلا تقدر على اختراقها ..

عندما أضغط على الزر فى جيبي يدق الجرس .. ينهض هو حيثما كان ويطلق المحولات .. من ثم تضاء الكشافات فى كل الشقة .. ضوء لا نراه لكن من الواضح أنه فعال جداً ..

النتيجة هى أن هذا الظل صار حبيساً الآن فى نطاق من الأشعة تحت الحمراء ، وهو بهذا يتصرف كفار فعلاً .. فار وجدناه فى المطبخ فأغلقنا عليه المصيدة ..

يا له من مشهد جدير بالكوليبس !

الظل يقاوم بجنون .. يستطيل .. ذراعاه تتلمسان الجدران .. يدنو من باب الشرفة ، لكنه لا يرى الكشاف المعلق هناك .. إنه كشاف معلق فوق باب الشرفة ، يجعل المرور عبره مستحيلاً .. وحتى هذه الظلال لا تقدر على عبور الجدران ..

يعود الظل وينتفض ..

نحن فى موقف قوة بلا شك .. لا أعرف نهايته لكنه ممتع ...

قال لى (عماد) وهو يعبر فرجة الباب :

- « تعال معي .. »

هل تعنى أننا سنصير فى غرفة واحدة مع هذا الشيء الحبيس ؟

عندما استطاع خالى أن يحبس فأراً فى المطبخ قرر أن يدخل ليقتله بنفسه .. ما إن دخل حتى تسلق الفأر على ثيابه وقضم أرنبة أنفه ، ثم تسلل داخل ثيابه ١ . لا تحبس نفسك مع القط الحبيس أبداً .. إنها نهايتك ..

برغم هذا دخل عماد وهو يهز كرشه فى ثقة وخيلاء . جلس خلف المكتب وراح ينظر إلى الظل المرتسم على السقف .

قال بصوت جهورى :

- « هل تسمعنى ؟ .. هل تقرأ أفكارى ؟ .. »

بالطبع لا تعليق ..

قال عماد :

- « سوف تحرك رأسك بمعنى (نعم) ولا تحركها بمعنى (لا) ..

فهمت ؟ .. »

اهتز الرأس ..

قال عماد :

- « هل أنت ظل تلك الأم المقيمة فى الطابق العلوى .. التى توفيت فى شم النسيم ؟ .. »

اهتز الرأس ..

- « لماذا توفيت المرأة ؟ .. » ثم تذكر وحك ذقنه .. « لا . لا . لا . تصلح إلا الأسئلة ذات (نعم ولا) .. هل أنت قتلتها ؟ .. »

لم يرد الظل ...

- « لنقل : إن هذه (لا) .. هل ماتت لأنك غادرتها ؟ .. »

هز الظل رأسه ...

- « هل أنتم كثيرون ؟ .. »

هز الظل رأسه من جديد ..

- « هل تريدون بنا شراً ؟ .. »

اهتز الرأس من جديد ، فشعرت بالدم يتجمد فى عروقى ..

- 7 -

صحت في جنون :

- « عماد .. كف عن السخف . لو كنت تعتقد أنك تدبر محادثة مع ظل فأنت مخطئ .. هذه الاهتزازات ألغاب ضوء لا أكثر .. »
- « ضوء لا يتلاعب إلا عندما تسأله ؟! .. ضوء عبقرى هو ! .. »

ثم رفع صوته قائلًا :

- « أين الآخرون ؟ .. »

كدت أقول له إنه ينسى أن الإجابات (نعم / لا) فقط ، لكنى وجدت أن الظل يرسم شيئاً ما .. رفع ذراعيه على شكل ضلعى مثلث وجعل كفيه للسقف ثم أنزلهما .. إنه يستطيل بلا شك ..

لا أفهم المراد .. نظرت إلى (عماد) متسائلاً ، فهز رأسه فى عدم فهم ..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت أنه يقف خلفى بتيابه الداخلية ، وهو يواصل ارتداء ثياب الخروج الرثة . بينما تلك الظل يتحرك فى بطء على جدار آخر ، وقد اتكمش ليصير فى حجم الرجل .. شعور غريب كأننا نراقب ثعباناً حبيماً ...

سألته فى رعب :

- « هل ستذهب ؟! .. »

قال وهو يربط رباط عنقه على طريقة المشنقة كعادته :

- « سوف أجنب بعض الأجهزة من دارى .. هناك الكثير من التجارب التى أريد إجراؤها على هذا الشيء .. »

فى هذه اللحظة دوى صوت ارتطام ؛ فنظرنا مذعورين ..

لقد طار كتاب كان موضوعاً على المكتب ليسقط على الأرض .. هذا الشيء يملك طاقة تحريك إنز ، وليس مجرد ظهور apparition .. لا شك فى أن غضبه أو ذعره مهمان لبئوغ هذه النقطة التى تسمح له بالتحريك .. ظل يسقط كتاباً !

أطلق (عماد) سبة بذينة وهمس :

- « هذا يغير الكثير .. »

- « هل تعتقد أنه قادر على أن يغلق الكشافات ؟! .. »

- « لا .. هذه عملية معقدة بما يكفى .. على كل حال أنا لن أتأخر .. »

وسرعان ما كان يغادر الغرفة فلحقت به .. كنت كل أجزاء منامته مبعثرة فى الصلابة .. منامة مكونة من 7 أجزاء .. ولا أرى كيف .. لية منامة أعرفها تتكون من جزئين ، لكن هذا الرجل عبقرى فعلاً ..

أخذ مفاتيح سيارته وغادر الشقة وهو ينصحني بالحذر ،
كأننى يمكن ألا أفعل ..

وسرعان ما وجدت نفسى فى شقة واحدة مع ... مع ظل
حبيب ..

ليس شبحاً ... لكنه شيء غريب لا أعرف أى حرف عنه .

حاولت أن أنسى .. لا يوجد تلفزيون فى هذه الساعة (الرابعة
صباحاً فى السبعينات) .. وبالطبع لا يمكن أن أحصل على كتاب ؛
لأن الكتب كلها فى غرفة المكتب ...! ... معنى هذا أن على أن
أجلس هنا وأقضم أظفارى حتى أصل لعظام الكف .. ولكنى
سمعت صوت شعائر صلاة الفجر تتسرب من مسجد قريب .
فشعرت براحة نفسية ..

هنا انقطع التيار الكهربى عن الشقة !

عزت !

عزت !

لو أنك أعطيت هذه المعلومات إلى جهاز كمبيوتر وطلبت رأيه .
فإنه سيبحث عن المضاعف المشترك بين هذه القصص ..

سيقول لك : إن عزت موجود فى كل قصة ..

(عزت) هو جار تلك السيدة التى توفيت يوم شم النسيم (وأنا
كذلك لو أردت الدقة !) ..

(عزت) هو صديق فنان الظلال .. عندما زارنى ذلك الفنان
كان يعانى فقدان الظل فعلاً ، فلا يمكنك أن تتهمنى بهذه النقطة !
عزت ..

عزت له دور فى هذه القصص جميعاً ، وليس بوسعى معرفة
حجم هذا الدور ، لكنى أعرف يقيناً أنه تم من دون علمه . لقد
تصرف بحماقة فى شيء ما ، وهكذا سبب ما حدث ..
يجب أن أتذكر هذه النقطة فلا أنساها ..

انقطع التيار الكهربى

لقد وضعت كل شيء فى الحسبان ما عدا هذا الجزء ..

لا تتم أن انقطاع التيار الكهربى وارد ويحدث كثيراً جداً ..

لا يمكنك أن تتم تجربة فيزيائية ما ، من دون أن تفسد فى
آخر خطوة ..

لقد انقطع التيار الكهربى ، وزالت أسوار السجن التى تحيط
بهذا الشيء .. إنه الآن حر ..!

أنا فى الظلام لا أعرف أين هو ولا ما ينتويه ، لكنى أعرف
يقيناً أنه هنا وأنه غادر محبسه ..

نهضت أترنح باحثاً عن مخرج .. لا أرى أى شيء ..
اصطدمت بشيء على الأرض فأصابنى الذعر ، ثم أدركت أنه
خف ذلك الأحق الذى نزع ثيابه فى كل مكان تقريباً ..

إنه هنا .. أتكلم عن الظل ...

إنه موجود من خلفى .. من أمامى .. على اليمين .. على
اليسار .. فوقى .. تحتى .. إنه ست جهاتى كما يقول العرب ..

إنه غارق وسط الظلام ، كما تغيب محلية خضراء وسط
الأحراش ، أو تغيب سمكة زرقاء فى مياه البحر .. إنه يقف
خلفى .. ربما أمامى ..

إنه يرى ذعري ..

له عينان متقدتان كجمرتين ، لكنه لا يستعملهما الآن ؛ طلباً
للتخفى ...

إنه هنا ...

سوف أجن ...

بالتأكيد سوف أجن ما لم يعد التيار الكهربى ...

صبراً يا رفعت .. لقد أنن الفجر وسوف يغمر النور الباهت
الأبيض المكان بعد قليل .. فقط تماسك ...

فجأة عم الضوء المكان ..

الضوء الجديد شديد السطوع ، كأنه كان يحتاج فترة للراحة تلك ..

هكذا التقطت أنفاسى .. وهرعت إلى غرفة المكتب لأجد ما
توقعته .. لقد رحل طبعاً ..

فتشت الشقة بعناية فلم أجد له أثراً .. فى كل مرة كنت
اصطدم بظلى .. لا بأس .. على الأقل أنا لم أفقد ظلى بعد ..

رن جرس الهاتف فوثبت متراً فى الهواء ، ثم جريت كى
أخرسه قبل أن يتوقف قلبى نهائياً ..

كما توقعت كان هذا صوت (عماد) .. لقد وصل إلى شقته
بن ..

« عماد .. لقد انقطع التيار الكهربى و ... »

هنا صرخ صرخة طويلة ثقت مسمعى .. وهتف :

- 1 -

« لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف للنهار لتمهل الليل فوق رأسي .. لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة بي إلى قارب .. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لي .. »

* * *

للمرة الأولى أزور الولايات المتحدة ، وكنت مدعواً بالطبع إلى مؤتمر للفنانين التشكيليين .. أي إبنى ذهبت على حساب وزارة الثقافة المصرية ..

كنت متأهباً لأن أصرخ وأشهق وأبهر لدى نزولي من الطائرة ، لكن البلاد بدت لي مخيبة للأمل نوعاً .. حديثة جداً .. باردة جداً .. تجارية جداً .. ليس لها ذات الطابع القديم المحبب لأوروبا مثلاً .. ليست غريبة في كل شيء كالبلدان التي زرتها منذ خمسة أعوام .. في الولايات المتحدة إما أن تتسوق وإما أن ترتاد البارات ، وهذا ليس شأنى ، وإما أن تجد البلاد مملّة تلفظك بشكل ما ..

كنت أقيم في (سياتل) على بعد خطوات من دار المؤتمر ، فكنت أقضى أكثر يومى هناك ثم أجوب المدينة ليلاً ...

تعرفت فنانة تشكيلية أمريكية من المدينة نفسها ، تدعى (روزالين جيرث) ، وقيل أن يذهب بك الخيال بعيداً أقول لك : إنها أقرب إلى رجل امتلأ وجهه بالفتجاج ، ولها شعر ثائر فى كل اتجاه ، وتدخن كأنها دبابة محترقة .. لم أر أحداً يدخن بهذا الشكل سوى (رفعت إسماعيل) ، وإن كان هو أكثر رقة وأنوثة منها ..

هى من طراز الفنان الأمريكى متوسط الموهبة والنجاح .. مطلقة .. ضائعة تماماً .. ذات ثقافة ماركسية متخبطة ؛ لأنها لم تقرأ كتاباً واحداً لنهايته .. تتعاطى المخدرات ، ومصابة بصداق مزمن ، ولنسوف تنتحر يوماً ما بالتأكيد ..

روزالين مالت إلى كثيراً ، ولا أجرو على قول : إنها أحببتنى ، لكن ربما كان شكلى المريض عنصر جاذبية بالنسبة لها ..

إنجليزيتى سيئة جداً .. أعرف هذا ، وقد سخر منى رفعت مراراً بسببها .. هذا الوغد يتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها ، وكان يقول لى : لا تتعب نفسك ، وتكلم العربية .. فهى أدنى إلى فهم الغربيين من إنجليزيتك هذه . لكنها - إنجليزيتى - مفهومة لهم على كل حال ، دعك من أننى لاحظت أن الغربيين يجعلون كلامهم أبداً وأسهل تلقائياً عندما يكلمون من هو مثلى ..

أعتقد أن (روزالين) كانت خير صديق لي في فترة المؤتمر ، وكانت من ماماتشوستس ، من أسرة متدينة ، لكنها تركت عالمها الحميم ، وراحت تجوب أمريكا بحثًا عن المتاعب ..

كم من مرة راحت تسألني عن ديانتى وشعائرها .. قالت لي إنها مهتمة بالأديان المقارنة ..

حكيت لها عن صديقى غريب الأطوار رفعت .. لو أنها قابلت هذا الرجل لتزوجته على الفور . فهو يعرف كل ما من شأنه أن يجعل الحياة مثيرة معها ...

إنها تفتقر إلى الهدف . لا يوجد غذاء روحي حقيقى ، لهذا تبحث عن أى وهم روحي .. سراب روحي ..

أعتقد أن هذا شأن أمريكيين كثيرين .. المرء هناك إما أن يكون بروتستانتياً شديد التعصب وإما بلا دين على الإطلاق ويخلق لنفسه ديناً ...

كان هذا عندما كنت معها في ذلك المرسوم الخاص بها ..

إنها ترسم لوحات شنيعة غريبة .. أسلوب متقلب يقلد (مونش Munch) نوعاً في لوحة (الصرخة) ، لكن من دون أصالة .. أنت تعرف لوحة الصرخة ، التى تجعلك توشك على

سماعها .. يقال : إن هذه اللوحة تحرك شيئاً في نفسية كل من يراها ..

كانت تحاول تقليدها ، كما قلت لك . ولم تكن موفقة جداً ..

كنت هناك لوحة مشوهة غريبة ، اكتشفت أنها تمثل وجهى ! .. لقد قررت أن ترسمتى إذن ...

كانت تستعمل طريقة غريبة للرسم ، فهي تضع أرضية لونية ، وتنتظر حتى تجف ، ثم تدهنها بطبقة سميكة من اللون الأسود ، ثم تبدأ للكشط بسكين ..

هكذا يبدو الرسم كأنه اسكتش سريع ، لكنه مرسوم بقلم يتغير لونه في كل لحظة .. وهذا يعطى تأثيراً مبهراً للحظة الأولى ، قبل أن تكتشف أن الأمر لا يستحق ..

سألتنى وهى تنفث دخان سيجارة :

- « ما رأيك ؟ .. »

- « وهل يمكن وصف العبقرية بكلمات ؟ ! »

أنا لا أريد أن أخسرها لهذا .. بعض الكذب الأبيض لن يضر أحداً ..

قالت فى خبث :

- « أنت تكذب أبها الخنزير !.. »

- « ربما أنا خنزير ، لكنى لا أكذب »

نفثت المزيد من دخان السيجارة .. لا.. لن أقول لها إننى أحبها أبداً ،
برغم أننى أعرف أنها تتوقع منى هذا .. هذه لن تدخل نطاق
المجملات ، بل هى فى نطاق الكذب الصريح الذى يشبه الانتحار ..
إن أيام المؤتمر سوف تنتهى .. عندها سيكون على أن أفر
من هذه المجنونة ..

كيف تفر بعد ما تصارحها بحبك ؟ .. خاصة وأنت لا تعمل إليها
على الإطلاق ؟!

مدت يدها وراحت تكشط المزيد من اللون الأسود عن لوحتى
إياها ...

لاحظت أن المدينة شكلها غريب جداً ، وأن مقبضها أسود لامع ..
هذه مدينة مخصصة لغرض آخر لا أعرفه بالضبط ..

سألته :

- « ما نوعية هذه المدينة ؟ .. »

قالت ولفافة التبغ فى فمها ، ومن دون أن تنظر إلى :

- « أثامى athame .. (*) »

أثامى !.. هكذا صارت الأمور مفهومة ..

عدت أسألها :

- « أثامى ؟ .. هل لهذا معنى ما ؟ »

قالت دون أن تنظر إلى :

- « هى مذبة طقسية تستخدم فى عدة أغراض .. الساحرات
يستعملنها لتوجيه الطاقة نحو هدف ما .. يستعملنها لرسم
الدوائر السحرية .. يستعملنها لطقوس الزواج والافتتاح مراسم
السحر .. يستعملنها كى تدلن على الجنوب .. »

ساحرات ؟!

كيف فلتنى أن ملامح (روزالين) هذه هى ملامح ساحرة فعلاً ؟!

(*) هكذا تنطق فعلاً ..

- 2 -

قالت لى : إن المقيض أسود : لأنه يختزن الطاقة النفسية ..
هى تستخدمها فى الرسم كى تبعث فى الرسوم شيئاً خاصاً ..

- « لا يمكن إهداء الأتامى لأن التقاليد تقول : إنها (تقطع)
العلاقات .. »

- « إن كيف حصلت عليها ؟ »

- « اشتريتها .. »

سألته عن علاقتها بالسحر ، فقالت :

- « أنا من كهنة الويكا Wicca . هل تعرف ما هى ؟ »

- « لا أعرف .. »

تنهدت وأشعلت لفافة تبغ أخرى ، وقالت وهى تستند إلى
ركبتها ، وقد وضعت قدمها على مقعد عال :

- « هذه محاولة لإعادة الأيمان الوثنية القديمة وممارسات

السحر التى قضت عليها المسيحية . لقد بدأت فى إنجلترا على
يد من يدعى (جاردنر) ، وقد شرح طقوسها فى كتاب يدعى
(مهنة السحر اليوم) .. كان هذا عام 1954 أى منذ عشرين

عاماً تقريباً .. إن الكهانة لها درجات عدة وتمر بعدة اختبارات ..
الدرجة الثالثة تمنحك لقب (كاهن أعلى) .. هذه لم أبلغها بعد ..
يوجد نحو 134 ألفاً من ممارسى هذه العقيدة فى الولايات
المتحدة وحدها .. »

نظرت إليها فى حيرة ..

على قدر علمى لم ألق ساحرة فى حياتى . لو كان رفعت
الأحمرى هنا !

الأظرف أنها كاهنة كذلك .. ومن تعبدن يا أنسة (روزالين)
ما دمت لا تؤمنين بدين سماوى ؟

قالت :

- « لما كان هذا النوع من السحر قد نشأ فى إنجلترا ، فهو
يعبد آلهة إنجلترا القديمة .. غالباً يلخصهم فى إله وإلهة .. على
كل حال هناك عقيدة أخلاقية أساسية هنا هى ... »

ونظرت إلى فى سخرية ، ولمعت عيناها وقالت :

- « (إن كان لا يؤذى فأتى حراً فى عمله) .. هناك 161
قانوناً وضعها (جاردنر) ، لكنها تتلخص فى هذه المقولة . »

ثم قالت لى وهى تنظر فى عيني :

- « غداً يكتمل القمر .. هناك ثمانية أعيد لنا تدور مع عجلة العام . العيد الذى نعقده غداً يدعى (إسبات) .. وسوف أكون هناك طبعاً .. هل ترغب فى أن تجرب ؟ .. »

قلت فى توجس :

- « أجرب ماذا ؟ ! »

- « ترى هذه الخبرة الجديدة .. لو راق لك الأمر يمكنك أن تنضم إلينا .. لكن هذا يحتاج إلى عام قبل أن يتم تنصيبك ! »

لو كنت هنا يا رفعت العجوز ، لتحمست على سبيل التجربة .

لكنك لست هنا ، والحقيقة أن الفضول حركنى بشدة لمعرفة ما يقوم به هؤلاء .. طبعاً لا مجال للكلام عن التنصيب والانضمام إليهم ، لكنى أريد أن أرى هذه التجربة الغريبة : احتفال وثنى للساحرات فى القرن العشرين .. أنا رأيت فيلم (الرجل الخيزان) ، وبدأ لى كل هذا غريباً جداً .. غريباً ومثيراً ..

لهذا قبلت ..

كانت رحلة شاقة بالسيارة إلى تلك البقعة الخالية ، لكنى عرفت أن طقوس الويكا لم تعد سرّاً ، بل الكل يعرف أن ساحرات الويكا يجتمعن هناك .. لقد مر زمن طويل على الحقبة التى كانوا يحرقون فيها هؤلاء . هناك سيارات شرطة تنظم المرور ، وهناك لافتات ومتاجر تبيع التذكارات ، وهناك مهرجان عام ، وبعض السياح الفضوليين .. باختصار لم يبق إلا بعض المجاذيب ليتحول المشهد إلى أى مولد عندنا فى مصر . فى أمريكا يمكن لأى واحد أن يعتقد بأى شيء .. فقط بشرط ألا يحدث ضجيجاً أو يعرقل المرور ..

كان القمر الساطع يغمر المكان بضوئه البارد الرهيب ..

وخطر لى أن الطقوس مهمة جداً لهذه الأمور .. لطقوس تجعل الأمر يبدو ضخماً مهماً حقيقياً .. لو انتزعت كل هذه الطقوس لأدركت أن هؤلاء مجموعة من المخابيل يملون وقتهم ..

كانت (روزالين) تلبس ثوباً أبيض طويلاً ، زائداً قبحاً ، وحمدت الله على أنهم لا يجربون من الثياب لهذه الطقوس ، كما كان يحدث من قبل .. لو حدث هذا لوجدت نفسى أختلق بين مشاعر الحرج والاشمئزاز ، خاصة وأن الموجودات كن قبيحات جداً .. كما تعرف هناك فى ذهننا صورتان جاهزتان للساحرات :

الساحرة الشمطاء ذات المكنسة والدمل على أنفها ، والساحرة الغامضة الفاتنة سوداء الثياب والشعر والعينين ، والتي تجعل الرجال بلهاء . كل الموجودات كن من الطراز الأول على كل حال ..

تقدمت نحو الأخريات وحيّتهن بعبارات من طراز :

« التحية للأخت (إلياتور) .. »

« التحية للأخت (روزالين) .. »

هناك دائرة واسعة من نحو 13 ساحرة . وعرفت أن هذا هو العدد المفضل للجماعة ، فإذا زاد العدد عن ذلك تكونت جماعة جديدة . يقفن بحيث ترفع الواحدة يديها لأعلى وتوجه الكفين للسماء ، لتبلو كلها على شكل حرف « ٤ » هكذا يعتقدن أن إلهة القمر تقف ..

(جارنر) هو الذي اخترع هذه الطريقة بالكامل ، وإن زعم أنه أعاد إحياء التقاليد الوثنية التي قضت عليها المسيحية .. عندما قرأت عن الويكا فيما بعد عرفت أنه لفق الكثير جداً من خياله الخاص ..

هناك تعويذة قديمة لهن تقول :

« لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسي .. لو أردت أن أبحر في البحر فلا حاجة بي إلى قارب .. ولو أردت أن أخلق فلا وزن لي .. »

هذه ثقة زائدة بالنفس .. يبدو أن الواحدة منهن تعتقد أنها سوبرمان .. أين ذهبت هذه المواهب العظمى إذن بينما (روزالين) فتاة متوسطة المستوى مكتتبه تتعاطى المخدرات ؟!

لماذا لم تقدمها هذه المواهب إلى السلام النفسي ؟!...

هكذا وقفن يرددن كلاماً لا أفهمه .. ربما كان بالإنجليزية ، لكنها إنجليزية سريعة جداً لا أستطيع متابعتها قطعاً ...

هذا يبدأ مثيراً ، ثم يصير مملاً بعد ربع ساعة . للأسف لن يبدأن في نبح بعضهن على سبيل كسر الملل .. لو حدث هذا لاستمتعت كثيراً ..

فيما بعد ، قالت لي (روزالين) إن عليّ لو كنت متحمساً أن أقضى عاماً ويوماً في حضور الاجتماعات وفي دراسة (فكر) الجماعة ، قبل أن يسمح لي بأن أكون واحداً من الويكا ...

(نحو 134 ألفاً من ممارسي هذه العقيدة في الولايات المتحدة وحدها) .. لقد جن الجميع ..

عندما علمت لي بعد ساعة كان رأسي مزبحمناً بالأسئلة ، وخاصة ما يتعلق بكتاب الظلال ..

- 3 -

كان هذا الكتاب موضوعاً في مكان خاص في دارها .. هناك ما يشبه (الكونسول) على منضدة .. وحوله الشموع والمستتر .. الشموع مهمة جداً وحولها كلام كثير ، لدى هؤلاء القوم ، دعك من أهمية الخنجر ذي المقبض الأسود الذي عرفت أن اسمه (أتامي) ، هذا المكان شيء قريب جداً من المحراب ..

أثار هذا فضولي بشدة ، وخشيت أن ألمسه حتى لا يتضح أن من يلمس كتاب الظلال هذا ينسحق الموت ، أو شيء من هذا الهراء . وقد سألتها عنه في اليوم التالي فأخبرتني أنه كتاب تعاويذ خاص بهم ..

- « لكن الكتاب ليس ثابتاً . في الواقع لدى كل ساحرة كتاب الظلال الخاص بها ، ويحوى ما يناسبها هي .. »

- « هل هو يماثل كتاب (تحوت) و (نيكرونوميكون) وما إلى ذلك ؟ »

- « قلت لك : إنه ليس ثابتاً .. إنه ككتاب للطهي لدى جدتي .. تحفظ فيه الوصفات التي جربتها هي .. الأصل كتبه (جاردنر) عن السنسكريتية ، لكنه سمح للجميع بالتعديل والإضافة .. لكن الحذف ممنوع .. لهذا هناك آلاف النسخ منه »

ثم قالت في انتصار :

- « في عهد الحرية هذا ، صار يوسع الساحرة أن تدون تعاويذاتها .. في الماضي كانت هذه التعاويذات تنقل من فم لقم ؛ لأن العثور عليها يعنى الحرق .. »

سألتها :

- « ولماذا أطلقتم عليه اسم (كتاب الظلال) ؟ »

- « العقيدة السنسكريتية كانت تعتمد بشدة على طول الظل الذي يسقط منك .. هذه أمور معقدة يصعب شرحها .. »

- « هل تتوون طباعته ؟ .. سوف يبيع كثيراً جداً ! »

قالت في حزم وهي تهز شعرها المنكوش :

- « لا .. كتاب الظلال لا ينسخ أبداً ، وإنما يتم نقله كلمة كلمة .. هذه هي تعليمات (جاردنر) ... »

سمعت من قبل عن كثير من هذه النصوص التي يحرم نسخها .. لكنه لابد أن تتعظم يدك في محاولة النسخ كي تثبت أنك مخلص .. لابد أن عملية الإعداد لمدة سنة تلك ، تتضمن نسخ مئات الصفحات ..

كنت تضع مفتاح دارها تحت (مشاية) أمام الباب ، كما علمتني ..
تتعامل بثقة كأنه لا يوجد لصوص هنا ...

لما قرعت الباب عدة مرات لم أجدها .. هكذا فتحت ودخلت ، وكنت أعرف أن هذا لن يشير غضبها .. هي سمحت لي بذلك أكثر من مرة ..

فتحت جهاز التلفزيون وجلست أمامه . لقد انتهت فترة المؤتمر وسيكون على أن أعد حاجياتي للرحيل غداً .. الحقيقة أنني بدأت أحب هذه البلاد ، لكن هذا جاء متأخراً جداً وأنا على وشك الرحيل . يعلم الله وحده متى أعود ثانية .

نهضت ووقفت أمام ذلك المحراب .. ورحلت أتأمل الشموع والخنجر ..

رحت أقلب صفحات ذلك الكتاب الغريب ، والحقيقة أنني كنت أقاوم رغبة شديدة في أن أسرقه .. هذا شيء سيروقي لرفعت ، أو سيظهر بأنه لا يشير اهتمامه لكنه سيروقي له ، لكنني بالطبع لن أخون الأمانة حتى مع ساحرة .. خاصة أنها تعلق أهمية بالغة على هذا الشيء ..

في الصفحة الأولى وجدت رسماً زخرفياً جميلاً جداً .. قطعة من الفن الرفيع ، وإن كان له طابع كتب القرون الوسطى المخيف .. لا بد أن كتاب (مطرفة الساحرات) يشبه هذا . هناك عبارة تقول :

B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT
Uipv tibv dpqz opu , mftu uif TIBEPXT tibv
efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif
voefbd , uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT .
ofbs Ejbob uifz tibmu cf

وهي كلمات بليغة جداً كما ترى ، خاصة مع الخط القوطي الذي يحتاج إلى ربع ساعة لقراءته ..

ثم إطار كأنه إطار مرآة يحيط بها ، بينما تمسك بأطراف الإطار شياطين صغيرة ضاحكة ، وعلى الأرض يقف كائن يشبه (بلان) إله المراعى عند الإغريق الذي صار فيما بعد رمزاً للشيطان ، وهو ينظر إلى اللوح المعلق في رضا .. بينما تحلق في السماء سحب وأرواح هائمة معذبة ..

هذا رسم باليد ؟! .. مستحيل .. لا أصدق .. لا يمكن تصور قدر الجهد المبذول في شيء كهذا .. ونظرت حولي . لا أحد يراقني ...

أخرجت الكاميرا التي أحتفظ بها في حقيبتى ، وهى تسمح بالنقاط صور ممتازة قريبة .. لقد جربت بها بنفسى مع أعمال فنية كثيرة ، خاصة أنه ليس على أن ألتق من انعكاس الفلاش لأنه لا يوجد زجاج هنا ، وقد قمت بضبط العدسة والنقطت عدة صور لتلك اللوحة ، ثم قلبت بضع صفحات من الكتاب والنقطت صورها .. النقطت كذلك عدة صور للمحراب .. هذه خبرة يجب ألا أنساها ..

أعدت كل شيء لمكته ، وجلست أمام التلفزيون لتبع العرض ..

ما هذا الذى أسمعه من غرفة النوم ؟!

- 4 -

صوت الأنين هذا ..

فرغت إلى غرفة النوم المواربة وفتحت الباب ..

على الفراش وجدت شيئاً هلاماً مثل (كينج كونج) ، واستغرقت لحظات حتى أفهم أنه (روزالين) راقدة تنن .. لم أدر من قبل كم هى ضخمة مرعبة .. إذن هى كانت فى الشقة منذ دققت الباب مراراً .. فلماذا لم تفتح ؟

باقى القصة كان واضحاً .. هناك زجاجة بها مشروب أصفر ، ويسكى على الأرجح ، وهناك زجاجة (كلورال هيدرات) برائحته المميزة .. المنوم الذى كنت أعطاه أحياناً ..

أنا لا أملك خبرة طبية ، لكنى أعرف أن تعاطى الكحول مع الكلورال هو وسيلة لتحرار لا تفشل ، ولا أعنى بهذا أنها انتحرت ، لكنه خطأ شائع فى الغرب .. غالباً لا يفيقون من هذه الغيبوبة .. بالفعل كانت تصدر شخيراً طويلاً ، وأدركت من لونها أنها لا تتنفس جيداً ..

كنت فى حالة سيئة أنا نفسى أفئداً لا أحمل أى نوع من الانفعال ، وغدتى فوق الكلوية لا تعمل كما يجب .. من دون هرمون الكورتيزون الذى تفرزه لن أحمل كل هذا الانفعال ..

هرعت إلى حقيبتى التى تحوى طبقاً صيدلية صغيرة ، وملأت المحقن بالكورتيزون ، وحققت نفسى أولاً ..

ثم هرعت إلى جهاز الهاتف وطلبت 911 .. هذه هى معلوماتى عن الولايات المتحدة ..

ليس انتحاراً .. أعرف هذا يقيناً ..

إنه خواء روحى دفعها إلى أن تغرق نفسها فى الخمر والمهدنات ، وهو ما يدل على أن هذه اللوبكا لا تساعد أتباعها كثيراً على .. « لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة لى إلى قارب .. ولو أردت أن أخلق فلا وزن لى .. » إنها لا تمنحهم القدرة على الحياة ذاتها ..

جاءت سيارة الإسعاف ، وركبت معهم ولنا لا أعرف ما ساقطه بعد ذلك - روزالين كانت هى دليلى الوحيد فى تلك البلاد .. حتى العودة من المستشفى تبدو عسيرة من دونها ..

ظللت ساهراً هناك بينما هم يحاولون جاهدين إعادتها إلى الحياة ..

فى النهاية ، فى ساعات الصباح الأولى ظهر لى د. (سام) وهو رجل متأنق حريص على أن يبدو راقعاً ، وقد صافحنى حيث جلست فى الاستراحة ، وقال لى :

- « لوه بيه .. لو لم تكن أنت هناك لفقدناها .. سوف تتجو .. »

قلت وأنا أشعر بأننى غير متزن بسبب السهر :

- « لولا صوت أبنيتها لبقيت أشاهد التلفزيون ، وهى تموت على بعد خطوات منى .. »

- « لوه بيه .. لكنى أرجو أن تؤكد لى أن هذا لم يكن انتحاراً .. »

قلت له مرتبكاً :

- « معلوماتى أن هذا ليس انتحاراً ، لكن ربما كنت مخطئاً .. »

نظر إلى لحظة فى (الأظفة) ولسان حاله يقول : أيها الكذاب الخسيس !.. ثم رأى أن هذا ليس من شأنه .. فقال :

- « لوه بيه ... إنها قد أفادت .. يمكنك أن تراها ، ولكن لفترة وجيزة .. »

هكذا دخلت غرفة العناية المركزة ، حيث كانت (روزالين) راقدة وهناك ألف خرطوم يخرج منها حتى صارت كالأخطبوط ..

دنوت منها في حذر ..

لم يكن قناع الأكسجين على وجهها ، ويبدو أنها عادت تتنفس بانتظام ..

في هذه اللحظة لم تبد لي قبيحة عل الإطلاق .. أشفقت عليها كثيراً .. الساحرة الكئيبة الفاشلة . هذا عنوان غير مطروق ..

قلت لها :

« أعتقد أنك لم تفعل هذا عمداً .. »

بللت شفتيها بلسانها وقالت :

« لم أفعله عمداً .. لكنه كذلك لم يكن خطأ ! .. »

« هذا لغز إذن ! .. »

« هو كذلك .. شعرت بقوة تدفعني إلى أن آخذ جرعة من الكلورال ثم أشرب .. لا أعرف السبب .. فعلت هذا وأنا أعرف أنه قاتل .. »

« إذن هو التعمد .. »

« بل هو ليس كذلك .. إنه لغز .. كان قوى أقوى مني أصدرت على حكم الإعدام .. كما حدث مع سقراط .. »

فكرت حيناً ثم قلت :

« أعتقد أن قصة الوبىكا هذه سوف تقودك إلى الجنون حتماً .. »

مدت يدها القوية المعروفة تتلمس يدي ، ثم قالت :

« إنه الصباح .. أعتقد أن موعد سفرك قد حان .. »

« هذا أسوأ وقت لتركك فيه .. »

« أنت قمت بما ينبغي عليك .. سوف أجتاز هذه المحنة ..

لا تقلق .. »

ودعتها في حرارة برغم كل شيء ..

أشعر بأننى لن أراها ثانية أبداً .. لن أسمع عنها ثانية .. على الأرجح لن تعيش طويلاً .. لكن لم يعد فى الوقت متسع .. يجب أن أحزم حقائبى وأتأهب للذهاب إلى المطار .. معنى هذا أن وقتى ضيق فعلاً ...

وعندما اتجهت إلى باب الغرفة سمعتها تقول بصوت مسموع :

« احترس من الظلال ! »

لم أفهم معنى هذه العبارة ولا دخلها فى الموقف ...

على الأرجح لم يستعد جهازها العصبى تملكه بعد ...

- 5 -

مصر من جديد ..

تلك هى المشكلة .. أنت تعجب بالخارج لكنك لا تطبق الابتعاد عن هذا البلد . لابد أن من يهاجرون يملكون نفسية لا أفهمها .. إما أن مصر كانت قاسية عليهم أكثر من اللازم وإما أنهم قساة أكثر من اللازم .. لا أعرف ..

ذكريات كثيرة أحملها معى ، وحشد من الصور .. طبعا كان أول ما قمت به هو أن طبعت ما التقطته من صور لأغيط به للناس ..

ذهبت إلى رفعت إسماعيل العجوز ، فوجدته لم يمت كالعادة .. وقد أمضينا ساعات لا بأس بها .. إنه يمقت الولايات المتحدة مثلى ، لكنه احتفظ بهذا المقت بينما تخلت أنا عنه ..

حكيت له عن ساحرة الويكا ، لكنى لم أدخل فى تفاصيل ! لأن الذكرى باتت أليمة بالنسبة لى . منظرها وهى راقدة فى العناية المركزة لا يريحنى جداً .. فقط حكيت له أننى صادقت ساحرة ويكا ، فقال إنه لا يعرف الكثير عن هذا المذهب .. جماعات السحر الوثنى تملأ أوروبا على كل حال .. فلن يضيف الأمريكان

شينا إلا التقليد .. هم - كما قال - يقدون الشامانية والصوفية والسحرة ، ويلبسون الجلباب والثيلوار ، ويأكلون الكباب والسوشي .. باختصار : هم يقدون كل الشعوب بلا أصالة ..

قال لى :

- « فكرة أمريكا أصلاً هي أخذ أفضل كل شيء من كل بلد آخر .. أفضل شيء أو أطرف شيء .. ثم تذويب هذا كله في بوتقة واحدة كبيرة .. الأمريكى عندما يشرب الساكى أو يأكل التورتيا Tortilla أو يلبس الجلباب يعتقد أنه صار يابانياً أو مكسيكياً أو عربياً أكثر من هؤلاء القوم أنفسهم . هذا يضايقتى ولا يشعرنى براحة .. »

لكنه قال إنه يملك مدينة الأمامى تلك .. أهداها إليه نصاب يهودى فى الولايات المتحدة ، وهو لا يذكر أين هي ولا أين وضعها .. لم يعرف قط أن لها أية أهمية .

احتجت إلى أسبوع حتى أستعيد توازننى .. ثم رحت أستعيد ذكرياتى مع الصور . طبعاً وجدت تلك الصور التى التقطتها لمقدمة كتاب الظلال بنقوشه العجيبة . وجدتُها جميلة جداً ، فأهديت واحدة منها لصديق لى يدعى (هاتى فهمى) ، وهو يدير مسرحاً لخيال الظل ، وله اهتمامات فنية واضحة ..

سألنى فى شغف عن محتوى هذه الصورة ، فقلت :

- « مقدمة كتاب سحر وثقى .. »

- « أعود بالله ! .. »

- « بصرف النظر عن محتواه ، لا تذكر أن للصورة جميلة متقنة ، والأهم أنها مرسومة باليد .. كل نسخة من هذا الكتاب منسوخة باليد .. »

وضع الصورة فى جيبه وهز رأسه ..

هذه هدية عجيبة لا يستسيغها كثيراً ، خاصة وهو خاطب ، وفى ضائقة مالية يمر بها كل من يقدم على الزواج .. ليس ممن يتوقعون أن أذهب إلى أمريكا وأعود له بصورة فوتوغرافية .. كأنه كان يتوقع أن أعود له بغرفة نوم أو أدوات مطبخ ..

ذكرونى أن أهدى صورة لرفعت إسماعيل .. فربما يفهم شينا من تلك النقوش ..

حدثت فى عالمى القريب أحداث مؤسفة ..

لقد توفيت جارة لنا لديها لبنان ؛ أحدهما طالب جامعة ، وله أخت طالبة فى الصف الثانى الثانوى . وبعد فترة وجيزة توفى الأب نفسه .. إنها مأساة حقيقية ..

يبدو أن رفعت إسماعيل يتردد كثيراً على هذين اليتيمين ، مدفوعاً بمزيج من الشفقة والمسئولية . هذا دور لا يناسبه ، ولا تملك إلا أن تضحك في سرك عندما تتخيل هذا الخفاش العجوز سيئ الطباع وهو يتظاهر بالحنان ..

لم تكن هذه نهاية مصائبى ..

لقد فقدت (هاتى) . فنان الظلال هذا الذى حكيت لك عنه .

كان ملهوفاً يرغب فى أن يتصل برفعت إسماعيل . لا أعرف السبب ، لكنى رتبت لهما لقاء مغا . ثم ابتعدت عن الأحداث لآسى خمنت أنه يريد أن يكون وحده مع صديقى غريب الأطوار ..

من الغريب أن نحس رفعت يعمل بشكل فعال ؛ لأن الرجل عاد لداره ومات بنوبة قلبية . هو صغير السن ، ويصعب أن نجد تفسيراً واضحاً لموته ..

تلقيت خطاباً من روزالين ، وهى بصحة طيبة .. مؤقتاً .. أعرف أنها ستموت ذات يوم ؛ بجرعة زائدة من المخدرات .. اعتدت أن أشم رائحة التحلل (ربما عن دون وعى) فى موضوعات الجرعات الزائدة هذه ..

أشياء غريبة تحدث .. يبدو أننى أصبت بالخبال بعد تجربتى مع الويكا تلك ..

أحياناً أرى ظلالاً تتحرك فى مرمى ليلاً .. وعندما أدخل أرى ذات الظلال ، تكن بلا شخص يبعثها .. كأنها ظلال حرة لو أردت رأى ..

إن أعصابى مرهقة كما هو واضح ..

عندما أعود إلى الولايات المتحدة فى المرة القادمة ، على ألا أزرر أى اجتماع للويكا ..

هذه أشياء لا تناسبنى ، لكنها خلقت لرفعت إسماعيل .. سوف يحضر هذه الاجتماعات ويجلب معه - دون أن يعرف - لغة ما ، تحل بهذا البلد المسالم .. هكذا تسير الأمور دائماً .. لنا بحاجة إلى أيام فى الإسكندرية .. يجب أن أرتب هذا فى أقرب فرصة ..

- 1 -

« إنها كانت ذات حياة منفصلة تمامًا .. وهي محتشدة في مكان اسمه (دلتا) .. لا أعرف المزيد .. »

هذه آخر كلمات (عماد بدوي) ..

لا أعرف مكانًا اسمه (دلتا) ...

لا أعرف سوى دلتا النيل ذاتها ... هناك ألف شركة باسم (الدلتا) .. لكن ماذا تفيد الظلال من شركة بهذا الاسم ؟!

كنت أفكر في هذا وأنا أنظر إلى جنته التي سقطت على الأرض .. نصف جسده كان فوق مقعد من الخيزران في شرفة داره المسقوفة ، والنصف الآخر كان يتكلى بلا حراك بين نباتات الظل .. السلحفاة ترحف بعيدًا سمجة كعهدى بها ..

من فمه ما زالت الرغبة البيضاء تتساقط ، ونظرة الرعب في عينيه ..

السماعة تتكلى من الهاتف .. ذلك المشهد الختامي الذي يخبرك أننا في فيلم رعب .. ساحتاج إلى وقت طويل حتى أجد فيلم رعب لا تتكلى فيه سماعة الهاتف ..

الجزء الخامس

حيث تنتظر الظلال

يحكيه رفعت إسماعيل

قال الضابط وهو يتأمل المشهد :

« لست طبيباً لكنها نوبة قلبية بلا شك .. هل لديك رأى مخالف يا دكتور ؟ »

هزئت رأسى أن لا .. أى طفل يمكنه أن يدرك أنها نوبة قلبية .. لكن ما الذى سببها ؟ .. أى ذعر شعر به عماد فجعله يهرع إلى الشرفة ثم يتعثر فيسقط ؟

أعتقد أنه كان يريد فتح الشرفة .. كان يريد بعض الهواء .. ربما كان يأمل أن يسبق الموت إلى ضوء الفجر ..

كان لابد أن أطلب الشرطة ، لأن الشقة مغلقة على الرجل وهو لا يفتح الباب ...

ما أغرب حياتى ! .. لا أذكر كم ألف مرة وجدت فيها جثة ووقفت أرد على أسئلة الشرطة .. فلو كانوا يحتفظون بسجلات دقيقة لاتهمونى بأننى سفاح ..

كنت أعرف جزءاً من القصة ..

لقد حاصرته الظلال فى شقته ، وأفرغته لدرجة الموت ، أو ربما اعتصرت قلبه فعلاً ..

بالتأكيد هذا هو ما حدث ..

تصل بى وأخبرنى .. أخبرنى بماذا ؟ .. لا قيمة لما قاله تقريباً .. لكنه ترك السماعة وجرى للشرفة ، ثم سقط وصرخ تلك الصرخة التى سمعتها ..

هو قال : إن الظلال موجودة فى مكان يدعى دلتا .. أنا رأيت ذلك الظل فى الشقة (وجدت أن الظل يرسم شيئاً ما .. رفع ذراعيه على شكل ضلعى مثلث ، وجعل كفيه للسقف ، ثم أنزلهما .. إنه يستطيل بلا شك ..)

الظل لم يتكلم مع (عماد) ، لكنه رسم له تلك العلامة .. والعلامة معناها دلتا .. عندما سأل عماد الظل عن مكان الآخرين رسم علامة دلتا ...

عندما غادرت الشقة كنت أغلق فاصلاً آخر من حياتى .

إنه ستار آخر يسدل فوق ذكرى من ذكرياتى ، ووجه لن أراه ثانية أبداً ..

لم أكن أهتم حباً بعماد ، لكنك بالتأكيد لا تريد أن يموت كل من لا تحمل لهم حباً ..

ترى كم نقص وزنه لحظة الوفاة ؟ .. هل فهم السر ؟ .. أين ذهبت تلك الطاقة التى تحدث عنها ؟

هو الآن يعرف ..

بالتأكيد يعرف ..

تلك الحكمة الكاملة التي نظف بها بعد فوات الأوان ، وعندما لا نستطيع الاستفادة من هذا الذي عرفناه ..

كنا الآن في العاشرة صباحًا والشمس تغمر الكون ، فيصعب عليك أن تصدق أن هذه الكوابيس حدثت ليلاً..

عرجت بمسيارتي على مطعم ، فابتعت بعض شطائر الفول والطعمية .. هذا يضيف الكثير من الأمل على الحياة . فقط سوف ألتهم هذا الإفطار وأشرب كوبًا من الشاي ، ثم أنام عدة أعوام .. لن أستطيع الذهاب للعمل اليوم ..

لقد اتصلت ببعض أرقام الهاتف التي وجدتها في شقة عماد ، وقد حضر بعض أقاربه .. سوف يقومون باللائم ..

عدت لشقتي وأعددت كوب الشاي ، بعد ما جمعت ثياب عماد المتناثرة ، شاعرًا بالحسرة ..

هنا دق جرس الباب ..

شخص سمع آخر على ما يبدو .. لو أخبروني أن عليّ أن أذهب إلى قريتي الآن لأن هناك من يحاول الاستيلاء على القدان بوضع قيد و فلسوف

لشخص للسمع كان (عزت) ، وكان منتعشًا كالمصيبة .. قال لي :
- « قدرت أنك لم تتم بعد .. هل تفطر ؟ »

- « سمع عشاء .. لا أعرف بالضبط .. هي ليلة مع ظلال تتحرك وصديق يموت وتعقيدات من هذا النوع . هل تتناول شظيرة من الفول معي ؟ »

قال في كهرياء ساخرة :

- « معني لم تعد تتحملة .. لقد اعتادت الهامبرجر كما تعرف .. لن أعطيك كثيرًا على كل حال .. »

- « إن الأخبار الطيبة تنهمر على .. »

ناولني صورة فوتوغرافية أخرجها من جيبه ، وقال :

- « هذه صورة من مقدمة كتاب الظلال .. لعلها تروق لك ! .. »

انحسرت للنقمة في حلقى ، حتى اضطرت إلى ابتلاع المزيد من الماء .. ثم سألته بصوت مختنق :

« كتاب ماذا ؟ »

« كتاب الظلال .. إنه كتاب سحر الويكا .. حسبك تعرفه .. »

قرأت عن (الويكا) وعرفت أنهم يستعملون كتاباً اسمه (كتاب المرايا) ، لكن (كتاب الظلال) هذا غريب على .. وهكذا بدأت بعض الصور تتداعى فى ذهنى ..

قلت له وقد طار النوم من عينى :

« تعال واجلس واحك لى .. »

« أحكى عن أى شىء ؟ »

« السؤال هو الإجابة !.. سوف تحكى لى عن أى شىء يخطر ببالك .. تخيل أنها جلسة نفسية تمارس التداعى الحر .. خذ .. اشرب هذا الشاي وساعد لنفسى كوباً آخر .. هلم .. يالك من أحمرى !.. لأن تكف عن هذه النظرة البلهاء وتغلق فاك قبل أن يدخله الذباب ؟ »

- 2 -

« لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة لى إلى قرب .. ولو أردت أن أخلق فلا وزن لى .. »

ظل (عزت) يتكلم حتى الظهيرة ..

كنت أسمعهم وأنا أعيد تأمل الصورة الفوتوغرافية مراراً .. وفى كل لحظة أوقن أن القصة تبدأ من هنا ..

(جاردنر) أنذر أتباعه بأن ينقلوا الكتاب ولا ينسخوه .. ما قام به عزت فعلاً هو أنه للتقط عدة صور للكتاب .. هذا نوع من النسخ بلا شك ..

لنا أؤمن أن هؤلاء مجموعة من المخابيل ، لكنى كذلك أؤمن بوجود السحر الأسود .. أى إننى أقبل جانب السحر فى القصة ، وأرفض الجانب الدينى لمتعلق بالهتهم تلك .. كما قلت ، هناك حقبة فى تاريخ البشرية يعرفها كل أنثروبولوجى ؛ هى حقبة (السحر كدين) .. إن الويكا تمت لهذه الحقبة بالذات ، وما فعله جاردنر هو إعادة إحيائها . ومن الممكن أن هناك جزءاً لا بأس به من السحر الفعال ظل وسط هذا النصب ..

(عزت) أعطى نسخة من الصورة لذلك الفنان الذى نسيت اسمه .. لكن ماذا عن الأم ؟ .. ما دورها فى القصة ؟ .. على الأرجح هى تلقت نصيبها من لعنة عامة أصابت البناية كلها ..

هنا يبرز سؤال : لماذا لم يُصب عزت ؟ .. للمنطقى أنه أجدر الناس بالإصابة بهذه اللعنة ...

الجواب كما اعتقده : لأن تلك الساحرة الأمريكية المجنونة مالت إليه .. مست اللغة من حوله ، لكنه ظل حيًا ؛ ولهذا أنا مرشح بشدة لأتلقى عقابى ..

لكن كيف أبرهن على كلامى ؟

عدت أتأمل تلك الصورة ، وأقرأ المكتوب عليها :

B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT
Uipv tibu dpqz opu , mftu uif TIBEPXT tibu
efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif voefbd,
uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT . ofbs Ejbob
uifz tibmu cf

فى نكاء قل عزت :

- « هذا نوع من الشفرة .. »

يا لك من عبقرى ! .. لو لم تكن موجودًا لهلكنا جميعًا ! ..

أمسكت ورقة وقلما وقررت أن أجرب طريقة (إيجار آلان بو) فى الحشرة الذهبية .. لا أحد يستعمل هذه الأساليب الآن .. لكن لنفترض أن (جارنر) كان أحمق ..

حرف t شائع جدًا فى اللغة الإنجليزية .. يليه حرف a .. ما هو الحرف الأكثر شيوعًا فى تلك الشفرة ؟ ..

تكرر حرف u 17 مرة ..

تكرر حرف b 15 مرة ..

الطريقة التى اتبعها يعرفها خبراء الشفرة باسم (الهجمة الإنتروبية entropic attack) .. لو افترضنا أن كل حرف u يشير إلى حرف t وكل حرف b يشير إلى a ، فإن بوسعى القول : إن كل تكرار لثلاثية uif معناه كلمة the ..

وفجأة جاعنى الحل كالصاعقة ، فصحت :

- « يا لى من أحمق ! .. »

قال عزت باسمًا :

- « جميل أن يصل المرء لحقيقته في النهاية ! .. »

قلت دون أن أكرث به :

- « الشفرة تافهة جداً .. هذا الجارنتر لم يكن ذا نكاء خلاق .. فقط هو استبدل بكل حرف الحرف التالي له في الأبجدية .. هكذا تحولت a إلى b و c إلى d .. ومن حسن حظه أن كلماته لا تحوى حرف z .. فلما شغوف بمعرفة كيف كان سيتصرف وقتها ..

ثم أمسكت بالقلم :

- « هل تحفظ ترتيب الأبجدية ؟ »

- « لا .. لم أراجعها منذ كنت في الصف الأول الإعدادي .. »

- « نفس الشيء معي .. للترتيب يختلط خاصة في الجزء المظلم

بعد حرف P .. سوف أحضر القاموس لتتذكر الترتيب الصحيح .. »

ورحت أقرأ حرفاً حرفاً وأخطه .. بعد التصحيح - على الورق ..

وهكذا ولدت الرسالة الجديدة :

A single line from the Book of Shadows thou shalt copy not , lest the shadows shalt depart the living, roam the earth like the undead, that is the kingdom of shadow . Near Diana they shalt be.

قال عزت :

- « ما هذه اللغة ؟ .. وما موضوع Shalt هذا ؟ .. »

- « الرجل نصاب ، لذا يحاول تقليد الإنجليزية القديمة كأنه مخطوط .. thou بدلاً من You .. و shalt بدلاً من will . دعك من الكلام المقلوب ونفى الفعل مباشرة على غرار copy not .. »

- « وما هو المكتوب إذن ؟ »

ترجمت بصوت عال :

- « أنت لن تنسخ سطرًا واحدًا من كتاب الظلال ، وإلا هجرت الظلال الأحياء وجابت الأرض كالمتوتى الأحياء .. تلکم هي مملكة الظلال .. قرب ديانا سيكونون .. »

بدا عليه الرعب .. واضح أن التهديد قد نفذ حرفيًا ..

- « ولماذا يلجأ أحد إلى كتابة تحذير بالشفرة ؟! .. المفترض في التحذير أن يفهمه الجميع .. »

- « هذا التحذير موجه لجماعة الويكا فقط .. لا يفترض بالأغيار أن يقرعوه أصلاً .. »

ثم عتت أمال :

- « ديانا .. أرتميس .. ربة القمر عند الإغريق ، والتي كانت ربة الصيد ثم غيروا تخصصها .. ما دورها في القصة ؟ .. »
 - « لا تنس أن احتفال الوبكا كان عند اكتمال القمر .. كُنْ بقلدنها فيقفن بهذه الطريقة .. »

ووقف ورفع يديه لأعلى ووجه الكفين للسماء ليبدو كله على شكل حرف Y ..

هنا تذكرت هذا المشهد ..

الظل الذي استجوبناه لم يكن يرسم لنا علامة دلّنا ، وإنما كان يشير إلى ديانا ..

(قرب ديانا سيكونون) .. (الآخرون عند ديانا) ...

الدائرة تضيق .. لكن أين أجد ديانا هذه ؟

- 3 -

على الشاشة راحت (سعاد حسنى) تغنى (يا والد يا ثقيل) .
 عندما يقرر (صلاح جاهين) أن يكتب كلمات مرحة فبته يفعل هذا بشدة .

كل قاعة السينما من الشباب تقريباً ، وقد وقفوا في طوابير لعدة ساعات للظفر بمقعد .. أنا و (عزت) المسنان الوحيدان للكنييان هنا ..

لقد كان فيلم (خللى بالك من زوزو) ظاهرة وقتها ، وظل يُعرض لفترة طويلة جداً .. يصعب اليوم أن أفهم السبب ، لكنه فيما يبدو من شيئاً ما عند الشباب المصرى وقتها ، دعك من جمال بطلته ووسامة بطله ..

(عزت) نائم .. هذا هو الصديق المناسب لى فعلاً ..

كنت أراهن على هذه النقطة : (هاتى فهمى) كان مع خطيبته فى سينما تعرض هذا الفيلم ، عندما اكتشف أن ظله حر يقف أمام الشاشة ويحبب الصورة .. هكذا حكى لى .. بما أن هذا الفيلم ثابت للأبد فى دور العرض ، فقد أعدت استعراض الدور التى تعرضه .. وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت أن هناك دار

عرض اسمها (ديتا) .. الان أتذكر أن هذه بالفعل دار العرض التي دخلها الفتى ليلتها والقريبة من بيت خطيبته..

أين يمكن أن تحتشد الظلال ؟.. هل من مكان أنسب من مملكة الظلال نفسها ؟.. هل يوجد أفضل من دار سينما ؟..

وماذا عن دار سينما اسمها (ديتا) ؟.. ألا يحقق هذا حرقاً عبارة (قرب ديتا سيكونون) ؟..

لم يكن عزت مقتنعاً ، لكنى أصررت على أن نذهب للسينما .. ندخل الحفلة الأخيرة وننتظر ..

ونظرت إلى ساعتى ..

اعتقد أن الفيلم اقرب من نهايته .

هزرت (عزت) لأوقظه وقلت له : إتينا لو فقدنا أثر بعض سنلتقى عند باب قاعة العرض هذه فى الثانية صباحاً .. نهضت فى صمت لتحسس موضع قلبنى فى الظلام ، متجهاً إلى الحمام ..

كانت دورة المياه خالية ، وفى تلك الزمن كانت تفتقر إلى أية غلبة أو نظافة ..

دخلت واحدة من الدورات المغلقة ، وفرشت منديلين ورقيين على القهقهة ، وجلست ..

فى جيبي كشف أشياء أخرى .. وطبعاً معى الصورة ... بعد دقائق سمعت من يمشى بالخارج .. يسعل .. يفتح باب دورة مياه مجاورة ثم يغلقها عليه..

أعتقد أن هذا عزت . لكنى سأنتظر ولن أكلمه الآن ..

هكذا بدأ الانتظار ، وهو نوع حقيقى من التعذيب البرومثيوسى .. تعذيب على مستوى الجلوسة المرهقة والظلام والمثل والرائحة .. لكن لا أجد حلاً آخر .. لا أعرف مكاناً آخر يمكن أن نتواري فيه سوى هذا ..

أخيراً أسمع جنبه الناس ..

أسمع خطوات عالية وصغيرة ..

لقد انتهى الحفل الأخير كما هو واضح ..

ونظرت إلى ساعتى .. إنها الواحدة إلا الربع ..

بعد ساعة وربع يغادر هذا المكان . وبعد ساعة وربع يتضح أننى أحمق كالعادة .. وأتلقى اللوم !

فتحت الباب وخرجت ..

بعد لحظات كنت لأقف مع (عزت) فى رواق مظلم خارج دورة المياه ..

قال لى وهو يضع منديلاً على أنفه :

- « تبا لك ...!.. لو كنت مخطئاً فإبنى ... »

- « صه ...!.. ما أردت إلا الخير ، ولست مسئولاً عن نظافة دورات المياه كما تعلم .. »

أعتقد أن العاملين قد رحلوا جميعاً .. لا أعتقد أنهم ينظفون الدار بعد انتهاء الحفلات ، إنما سيتم هذا صباحاً ، وعلى الأرجح قام المحاسب بجمع الحصىلة وأغلق خزائنه أو درجه ، وقام عامل العرض بلف بكره الفيلم وأغلق مقصورته ..

لقد تحولت دار السينما إلى مدينة أشباح ..

يجب أن تعرف أن دور السينما فى ذلك الزمن كانت فى حالة سيئة فعلاً ، قبل أن تبدأ موضة سينما للمول و (الملتيلكس) الحالية . لهذا كانت السينما صالحة جداً كى تكون مسكونة بالأشباح ليلاً ..

كنا فى حالة بالغة من الإرهاق بسبب الانتظار الطويل الذى جعل الأدرينالين يتدفق فى عروقنا بشدة .. بعد هذا يزول

الأدرينالين ، فتشعر كأن الحياة ذاتها فارتقت جسمك .. لا توجد عضلة واحدة قادرة على التماسك ..

قال لى (عزت) وهو يلهث :

- « هل من خطة ما ؟ »

- « لا توجد خطة .. سنقوم بجولة تفتيشية .. لو قابلنا الظلال فسنسوف أحرق هذه الصورة الفوتوغرافية برهاتنا على حسن النية .. »

نظر إلى فى الظلام .. أعتقد أنني أعرف ما يفكر فيه ..

مشينا فى الرواق وشعرنا بهواء بارد يتسلل لنا ..

للمرة الأولى أرى مدخل السينما بالأكفيسات واللوحات المعلقة وقد ألصقت عليها الصور ، وشباك التذاكر المغلق . أرى هذا كله من الداخل .. ووحدى ..

كان هذا هو باب السينما .. شبكة حديدية ثقيلة تم إسدالها ، لكننا نرى الشارع من خلفها .. لشارع قمظم ، حيث بدأت قطرات ماء تتساقط ، وثمة كلب ضال يلتهم شيئاً جوار عمود نور ..

مشهد كئيب لكنه أجمل مما نحن فيه . نحن غير قادرين على الخروج .. لقد أغلقت دار السينما علينا حتى الصباح

على ضوء الكشف صنعنا للفرج .. وعيناي تتلمسان الجدران ...

كانت الكافتيريا أمامنا في الطابق الأول .. هناك ضوء خافت ينبعث من ثلاجة مشروبات تهدر بصوت كئيب ، بينما الكافتيريا نفسها خالية تمامًا .. خزانة زجاجية كان يوضع فيها الفيشار ، وأرفف كانت عليها الحلوى والشطائر وأدوات الشاي ... هناك سخان ماء عملاق ، وهناك آلة عمل فيشار ... ثمة ثلاث أبواب عملاقة من غار البوتان ..

فأر ركض جاريًا ليغيب في شق في الجدار قرب الأرض .. عامة ليست الفئران من المناظر الجميلة ، لكنه أشعرنا بشيء غير قليل من الألفة .. هذا كائن حي من مخلوقات الله .. كائن طبيعي يجري ويأكل ويشرب ويموت ...

لا يوجد شيء هنا ...

فجأة هتف عزت :

« هناك ! .. »

ونظرت بسرعة فأدركت أنني كنت على حق ..

- 4 -

رأيت هذا الظل يتحرك على الجدار جوار الثلاجة ..

كان ظل إنسان يفتح ذراعيه عن آخرهما ، ثم اتحد نحو الجدار المقابل ، فاستطال ليبلغ السقف .. ورأيت بقعته الحمراء بين اللتين هما عيناه ...

نظرت في اتجاه مصدر الضوء فلم أجد أي جسم مادي ..

لقد كان هذا ظلًا حرًا ...

تراجع عزت لحظة ... ثم رأيته يمسك برأسه ويترنح ..

(عزت) .. ماذا بك ؟! .. هل أصبت بنوبة (أديسون) التي أخشاها ؟!

لكنه كان يغمض عينيه . وفجأة همس :

- « روزالين تتصل بي بالتخاطر .. أنا متأكد من هذا .. إنها تعرف ما لفعله .. تقول لي : إنه لا جدوى .. إتينا في خطر داهم .. يجب أن نفر .. »

- « فات ألوان هذا .. »

- « تقول لى : إن الظلال تتكاثر . تتغذى بالموت والذعر والاحتضار .. ذعرنا يجعلها أقوى .. »

ونظرت إلى السقف حيث كان هذا الظل يطل علينا من أعلى ... ثم راح يتحرك مبتعداً داخل ممراً جانبياً ..

هرعت ألحق به ..

كان هناك باب خشبي ذو مفصلات زهركية كأبواب الحلات .. أزحته جانباً فوجدت أننا نقف وسط عشرات المقاعد الخشبية ..

هذا - كما يبدو - مدخل من مداخل الدرجة الثالثة ..

على الأرض عشرات الأكياس وقشر اللب وأعقاب السمجتر والزجاجات الفارغة .. علامات جمهور الدرجة الثالثة (الترسو) ..

لكن من أين يأتي الضوء ؟

هناك مصباحان خافتان يرسمان كلمة Emergency exit .. ومع الظلام الدامس بدت إضاءتهما قوية جداً ...

مشيت أكثر .. ومن خلفي عزت ..

نحن هنا نرى الشاشة عن قرب .. الشاشة التي كانت مسك حصى تغنى عليها وترقص منذ ساعات ، لكنها الآن صارت بيضاء ..

ليست بيضاء تماماً .. هناك عشرات الظلال تتراقص عليها رقصة مجنونة ..

إنهم مخابيل فعلاً .. هذه الرقصة لا يمكن فهمها ولا تقود لغرض ما ..

ثم أدرجت أنهم غاضبون ..

لقد دخلنا مملكتهم عندما بدأ الحفل ..

ظلال .. ظلال ..

ظلال .. ظلال ..

كم من بشرى مات وهو يمسك بقلبه كي يولد ظل من هذه الظلال ؟

ومر ظل من فوقنا فتحنيانا .. وهي حركة لا معنى لها لأنه شيء يستحيل أن تتحاشاه .. لكنه ارتدى على جدار مقابل وتكرر فوق المقاعد الخشبية ...

صحت بأعلى صوتي فتردد الصدى في القاعة كلها :

- « أنا لم أت هنا إلا لأثبت حسن نيتي .. هذه الصورة تم استنساخها بطريقة الخطأ .. هل تفهمون هذا ؟ »

ومددت يدي في جيبي ولوحت بالصورة الفوتوغرافية .. ثم أخرجت القداحة وأشعلتها وقربتها من الصورة .. بدأت تحترق .. تنوب .. تحترق .. تنوب .. حتى شعرت بلسعة النار على أنفلي ..

كانت الظلال متصلة ترمقني ..

حتى ثلاثت الصورة ..

في اللحظة التالية شعرت بألم شديد في قلبي ... أنا عاجز عن التنفس .. ما هذا الذي يحدث ؟

صرخ (عزت) في رعب :

- « رفعت ! .. انظر إلى الظلال ! »

ونظرت إلى الظلال على الجدار المجاور لي فرأيت ظلي وأنا أمسك بصدري .. في الوقت ذاته يحيط بظلي ظلان عملاقان يمد أحدهما يده في صدري ..

لكن ...

ظلي يتحرك بشكل منفصل عني .. به يقاوم ، لكنهما يجرقه .. يبتعد عني وقد صارت له حياة خاصة ! ..

فهمت ..

إن الصورة كانت تحميني طوال هذا الوقت ، وعندما أحرقتها لم يعد لديهم ما يمنع من انتزاع ظلي وانتزاع حياتي ذاتها .. ظلي ينضم لهم ، وعمّا قريب يتحرك على هذه الجدران ، بينما لسقط أنا جثة خالية من الحياة ! ..

نوبة قلبية ..

من سجدون للجثة صباحاً لن يجدوا إلا كهلاً أصيب بنوبة قلبية ..

ولكن

- 5 -

بآخر ما تبقى في صدري من حياة ، مدت يدي إلى جيبى ..
أخرجت الشيء ..

ونظرت إلى ظلى على الجدار ، فوجدت المديّة في يده ..

رفعت المديّة وهويت بها .. بمعنى آخر : جعلت ظلى يهوى
بظل المديّة على الظلال التى تحيط به ..

رأيت الظلين يتعدان .. يتحليان عن الظل الذى كانا ينتزعه
من مكانه ..

أحد الظلين تهاوى ساقطاً ، والآخر فر مذعوراً ...

وعندما رفعت يدي وجدت أن الظل رفع يده معى .. لقد صار
لى من جديد .. إنه ظلى مرة أخرى .. ومن جديد عاد قلبى
ينبض ، والدم يسرى فى أوصالى ..

هتف (عزت) المذعور :

- « ماذا حدث ؟! »

- « قلت لك : إن لدى تلك المديّة .. (الأثامى) .. أنت تعرف
أنها تحمل طاقة نفسية فى مقبضها الأسود .. وقد خطر لى أنها

قدرة على الدفاع عنى ؛ لأنها تنتمى إلى لويكا .. إن ظل المديّة يطعن
الظل بنفس المنطق الذى تطعن به المديّة نفسها شخصاً حياً .. «
- « هل تعنى أن بوسعنا قتل الظلال بهذه الطريقة ؟ »

نظرت إلى أعلى ..

ظلّ يتحرك على الشاشة ..

ظل يركض على الأرض ...

ظل يتلوى بين المقاعد ..

ظل يلتف من حولنا ..

ظل على الباب ..

ظل يصعد الدرجات ..

ظل بين مقعدين ..

ظل ينتفض على الشاشة ..

ظل يركض على الجدار الشرقى ..

ظل يملأ السقف ..

ظل ينحدر من أعلى ..

ظل يركض بين أقدامنا ..

ظل يتلوى بين المقاعد ..

ظل يلتف من حولنا ..

ظل فوقى ..

ظل على الأرض ..

ظل يصعد الدرجات ..

ظل بين مقعدين ..

ظل ينتفض على الشاشة ..

ظل يركض على الجدار الغربى ..

ظلال .. ظلال .. العنات منها ..

لن تجدى هذه الطريقة أبدا ..

الظلام التام أو الضوء المساطع ..

لا سبيل للقضاء عليها إلا الظلام التام أو الضوء المساطع ..

الظلام لا يجدى لأنها تتوارى فيه .. إذن هو للضوء المساطع ..

« اتبعنى يا عزت .. »

ورحت أصعد الدرجات لاهثا .. أخيرا وصلت لتلك البوابة بين الصالة والدرجة الثالثة ، فعبرتها .. كاتت موصدة طبعا ، فتسلقتها ، وهذا لم يكن صعبا ؛ لأنها بارتفاع طفل ..

« رفعت .. إنهم يترصدون بك !! »

نظرت إلى الجدار فوجدت ثلاثة ظلال تهاجم ظلى .. رقصت رقصة القتال وجعلت ظلى يوجه إليها ثلاث طغفات قاتلة .. ثم واصلت تقلمى ..

مشيت بين مقاعد الصالة لاهثا .. أصعد درجات أخرى نحو البلكون ..

هناك باب فى نهاية البلكون . أعبره وأصعد المزيد من الدرجات ..

« لا تتأخر عنى يا عزت .. »

هنا مقصورة العرض .. وهى مغلقة بقفل طبعا ..

لكن هناك محاولات النور كلها فى صندوق جدارى .. لا أعرف ما هو صحيح وما هو كفىل بصعفى ، لكنى على كل حال مددت يدى إلى أول رافعة وجنبتها لأعلى فأحدثت صوتا ..

تراك !

رأيت قطاعاً من الأنوار الجانبية بضئ ...

تراك !

المزيد من الأنوار يسطع ..

سوف أقضى عليها .. سوف أحيل صالة السينما إلى جحيم
من النور ليست فيه بقعة ظل واحدة ..

لكن ماذا بعد ذلك ؟

لا أدري ..

- 6 -

انتشر النور ليغمر قاعة السينما كلها ..

لكن لم يكن ساطعاً بما يكفي ، ولم يغط كل شيء .. هكذا ظلت
هناك أماكن عديدة سخية بالظلال .. والأدهى أن الظلال كانت
تخرج للصالة وترجع بلا توقف .. لابد أن ردهات السينما تمتلئ
بها ..

وزحف ظل نحوي ليغمر قلبي ، فطعنته بالمديّة ...

فتنى حول نفسه واستطال حتى مس سقف السينما ، ثم تهاوى ...
إنهم يقتلون بالرعب والذعر ..

إنهم ينمون بلا توقف ..

قلت له (عزت) :

- « لا جدوى .. لن نستطيع القضاء عليها .. سوف ينهكوننا
إلى أن نموت .. يجب أن نخرج .. »

- « وماذا عن حرق المكان ؟ »

- « النار لن تفعل شيئاً .. سينتقلون إلى مكان آخر .. إنها
ظلال .. »

« ولكن كيف نفر ؟ »

كنت أفكر في الدرجة الثالثة .. دائماً ما يكون هناك باب يقود إلى زقاق خلفي ، وهذا الباب غالباً من الخشب غير المدعم بالحديد ..

هكذا عدت أنزل السلم الطبقي ماراً بالبلكون فلصالة فالترسو ..
انتقل من عليّة القوم إلى الطبقة المتوسطة فالفقراء

ورحت أفتش عن باب ، بينما الظلال ترقص تلك الرقصة المجنونة من فوقى ..

هناك الباب الذى دخلنا منه .. وهناك باب جانبي آخر عليه قفل ..

طلبت من (عزت) أن يساعدى : فقلبي واهن ولا أقدر على تحطيم هذا القفل ..

التقط مقعداً خشبياً وراح يحاول بقدم خشبية أن يهشمه .
ضربة .. وأخرى .. فأخرى ..

فى النهاية هوى القفل محطماً ... وافتح الباب ..

أزحتهُ بقدمى فرأيت الزقاق المظلم القذر الذى كنت أحلم به ..
صوت نباح الكلاب من بعيد يعيدك للحياة ..

هنا خطرت لى فكرة ..

« من جديد أفكر فى الأمر .. أعتقد أن فكرة حرق المكان قد تصلح .. »

« الظلال لن تجد مشكلة .. أنت قلتها .. »

« لا أتحدث عن الظلال .. أتحدث عن إرغام البلدية على هدم هذه السينما ، أو تهيار سقفها ... فى الأساطير الإغريقية كانت ديانا أو أرتميس ابنة زيوس وليتو وأخت أبولو .. كانت هناك لعنة من لعنات (هيرا) قضت بأن الطفلين لن يولدا إلا فى موضع لم تره الشمس قط .. هكذا قامت ليتو بتعويم أرض من قاع المحيط ليولد عليها طفلاها .. »

قال فى غيظ وهو نافذ الصبر :

« الخلاصة .. ماذا تريد قوله ؟ »

« أريد أن تغمر الشمس هذا المكان .. لو كان هؤلاء يريدون ديانا فإن الشمس تقضى على ديانا .. سنحيل هذه السينما إلى خراب .. فإما أن يهدموها ، وإما أن يتهاوى السقف وتدخل الشمس مع ساعات الصباح القادمة .. »

ثم قلت لاهنا ، وأنا أستاذ إلى الباب وأتأوله القداحة :

- « لم تعد هى قوة تسمح بالعودة .. دعك من أنك منيع كما أرى بوضوح .. سوف تعود إلى الكافتيريا وهناك تجد ثلاث أسطوانات عملاقة من غاز البوتان .. سوف تفتحها جميعاً ثم تتراجع وتشعل النار بالفداحة فى أى شىء قريب قابل للاشتعال .. بعثر بعض الأوراق المحترقة فى الصلاة .. عندما تلحق هى هنا سيكون الغلزال قد بلغ اللهب .. »

نظر إلى فى قلق ، ثم تناول الفداحة واندفع يركض عبر الصلاة .. انتظرتة فى قلق على الباب الموارب ، وعيناي لا تفارقان ظلى الذى ارتقى على أرض الشارع .. إنه ملكى .. ما زال تحت سيطرتى ..

لقد أذرتنى الكينونة منذ زمن ..

قلت لى إن على ألا أتق بالظلال ..

قلت لى إن العالم كما نعرفه فى خطر عظيم ..

معنى كلامها أننى فشلت .. على الأرجح ، أن أتمكن من عمل

شىء ..

قد أقضى على الظلال مؤقتاً .. لكن الاحتمال الأكبر أنها ستفر وستجد لنفسها موضعاً آخر (قريباً من ديلنا) ...
لربما احتجنا إلى طلب معونة من فتاة الويكاتيك تلك ..
لربما منحتنى الكينونة حلاً ..

لا أعرف .. فقط أدرك يقيناً أن الأمر أكبر منى وأن ما سنحصل عليه هو فترة هدنة لا أكثر ..

لقد حكى لى (عماد) قبل وفاته عن حوادث مماثلة فى أمريكا وإنجلترا .. معنى هذا أن القصة تكررت .. هناك من نسخ كتاب الظلال فلاحق به انتقام الظلال ..

فى كل مكان من العالم تحتشد الظلال الغاضبة لتعصر قلوب ضحاياها ..

إنهم ينشرون الذعر والهلع ..

وينمون

ينمون ...

جاء (عزت) راكضاً لاهثاً وهو يحمل رزمة من أوراق
كراريس المدارس وجدها في مكان ما ، وراح يشعل أعداداً منها
ويبعثرها فوق المقاعد . بعض المقاعد كان من الخشب الجاف
وقد بدأ يشتعل فعلاً ..

قلت له :

- « هيا بنا .. »

وغادرنا السينما من باب الدرجة الثالثة . فقط نظرت إلى
الخلف لأرى ظلالاً طويلة تمتد من الباب عبر أرض الشارع
نحونا .. كأنها تحاول الظفر بنا ..

كنت ألوح بالمديّة كالمخبول ونحن نبتعد بسرعة .

سيارتي تقف هناك أمام مدخل السينما الرئيس .. باردة هادئة ..
لكنها تمنحك الأمان والثقة ..

ركبنا وأدركت المحرك ..

فرو فرو فرو ... يوم !

لم يكن هذا المحرك الذي انفجر ، ولكن الصوت من دار
السينما الفارغة التي انفجرت فيها ثلاث أسطوانات من غاز
البيوتان ..

فليكن الضرر بليغاً .. يا رب .. فليكن الضرر بليغاً ! ..
السماء تتلون بلون رمادي ؛ لأن الفجر قد اقترب ، لكنني كذلك
أرى سحابة الدخان الكثيفة ..
فلنفر إذن ..

قال لي (عزت) وهو ينظر عبر النافذة الخلفية :

- « هل قضينا على هذه الظلال ؟ »

قلت دون أن أنظر إلى الخلف :

- « بالطبع لا .. هذا مجرد قرار إزالة .. نوع من المياه التي
يرشها صاحب المقهى لمنع الأطفال من اللهو أمام مقهاه ..
لكنهم سيتجمعون من جديد ويواصلون اللعب .. »

- « والنهية ؟ »

- « لا أعرف .. سوف تتكاثر هذه الأشياء للأبد ... أعتقد بلا
مبالغة أنها نهاية الحياة كما نعرفها ... سيكون عليك أن تتصل
بروزالين هذه طالباً النصح .. ربما كانت تملك الإجابة .. »

وربما لا

ربما هو زمن مقطّع ليس لنا ، وربما لحقت بى هذه الظلال
فى دارى الليلة بالذات ، لكن الوقت كان كافياً لأن أعيش فترة
أخرى .. فترة تكفى كى أمر بأسطورة الطوغم ...
لكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

روايات مصرية الجيب

ما وراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من قرط القموض والإثارة



د. محمد رضا الزوفى

أسطورة الظلال

أسطورة الظلال ؟ - كيف لم
أحكيها بعد ؟ .. أعتقد أنها تناسب الجميع
خاصة الأطفال .. كما أنها تحتوي موعظة أخلاقية
بسيطة هي ألا تلحق في الأشخاص الذين لا ظلال لهم ..
هي قصة قديمة قدم الرعب نفسه .. لكننا نساها دوما ..
الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرف قهرا بشكل
متفصل .. يبدو أن السينما المصرية الأتالية قتلت هذا
الموضوع بعضا في أوائل القرن العشرين والأفلام المسماة
الكابوسية الباردة ..
مرحبا بك في عالم الظلال وقوم الظلال واساطير
الظلال ..

مرحبا بك في صالون الدكتور
(رقت إسماعيل) ...

العدد القادم

أسطورة الطوغم

المؤسسة
العربية الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

التمن في مصر 400

وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

